وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
١٠

أبو تمام الطائي

تأليف

خضر الطائي

دار الجمهورية
بغداد
١٩٦٦


مكتبة لسان العرب
https://hmmt55.com/lisaan03

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أحمده واستعينه ، وأعوذ بالله من خطأ القول وخطل الرأي ، فانه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له ٠

وصلاته وسلامه على سيدنا محمد القائل :

« ادبني ربي فأحسن تأديبي »

وعلى آله واصحابه ، والتابعين لشريعته وآدابه ٠

خضر الطائي

تمهيد

في أثناء سنة ١٩٣٥ أصدر الدكتور عمر فروخ رسالة عن ابي تمام الطائي(١) ، ذهب فيها مذاهب لا عهد للنقد بمثلها ، ولا تسعها احاطة العلم والتاريخ واللغة والفن •

وقد استمد أساس فكرته من محاضرة كان ألقاها الدكتور طه حسين عن هذا الشاعر في قاعة (يورت) التذكارية سنة ١٩٣٣(٢) ، ولكنه لم يشر الى رأي الدكتور طه في الموضوع ، وكل ما اختلفا فيه أن طه‌حسين يمر بمراجع البحث مرور المترفع فينتزع منها المضامين باسلوب يلهي عن محاولة التأمل في مبلغها من الاصابة في الاستنباط ، والاصالة في الرأي •

أما السيد فروخ فقد كان يلتمس المراجع التماسا ، وهذه هي الطريقة المثلى لمن يريد التحقيق العلمي ، الا أنه كان يتعمد التدليس فيسندها الى غير أهلها ، كما تعمده الدكتور طه في محاضرته ، وكل ما اصطنعه الدكتور فروخ انه التمس مراجع البحث باشاراته الى مظانها من الكتب ، وتسجيله أرقام الصفحات التي نقلت عنها ، وهذا ما يسر لنا التعقيب عليه •

واني لأستغرب ان كان اولو الرأي لم يهمهم يومئذ تصحيح هناتها ، وانما التبعة علينا أن نعد للاجيال القادمة مادة كبيرة من الأدب المشوه •

(١) عنوانها : أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله •

(٢) طبعت هذه المحاضرة مع محاضرات اخرى للدكتور طه حسين بعنوان : من حديث الشعر والنثر وكانت طبعتها الاولى سنة ١٩٣٦ ، وقد أشار الدكتور طه في مقدمتها الى (ان البعض قد استغلها دون الاشارة اليها ، فاظهروا انهم مبتكرون لموضوعها ، وكلهم كانوا سمعوها أو قرأوها في الصحف) •

وهذا ما حملني على تناول البحث بعد زمن صدوره ، فانه لم يتسن لي أن أطلع على رسالة فروخ ومحاضرة طه في حين صدورهما لو لم تدعني المناسبة الى الاطلاع عليهما منذ عهد قريب ، على أن الموضوع غير مقيد بزمن فباب المناقشة فيه لايزال يلجه كل ذي رأي ٠

وليست معاناة التأليف سهلة ، ولا النظر في مصادره هينا ، وخير للباحث ألا يكون (كمن أورد الابل مشتملا) فيتندر به الظرفاء ، وتنصرف الاشارة اليه عن الثقة به ، وقديما قيل : أن عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم٠

وبعد فقد رحب الدكتور فروخ في كلمته الاولى بكل من يريـــد ان يتثبت من البحث ، وهذا ما يجعلني أثق بأنه سيحمل هذا النقد على الاشتراك في طلب الحقيقة بما لابد منه لطبيعة القول ، واني لآمل ان اغتبط بحلمه ان ندر مالابد للقلم منه أحيانا ، فقد تبلغ الدعابة من صميم البرهـــان ما يقصر عن دقائقه الجد ٠

القســـــم التأريخي



ابو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله

عقد الدكتور فروخ فصلا من رسالته هذه ضمنه ترجمة ابي تمـــام ، وتاريخ اسرته ، وخلاصة الحوادث بين مهده ولحده ، ثم أكمل البحث بفصل آخر تكلم فيه عن البيئة التي كونت مذهبه ، وترعرعت فيها ثقافته ، وتكلم عن خصائص موهبته ، وعلاقتها بحوادث عصره المهمة ، فخرج من كل ذلك برأي ينبغي الا يتسرع فيه قبل ان يتأمل فيه طويلا ، وخلاصته :

ان ابا تمام تحدر من اسرة كانت من الجالية الرومية التـي ســـكنت (سورية) قبل الفتح الاسلامي أو بعده ، وان انتسابه الى (طيء) كان (بالولاء) لا (بالنسب) ، وان لدمه (الاجنبي) أثرا في تكوين مواهبه ، وأما (دينــــه) فكان (نصرانيا) فاسلم دون أهله ، واصبح شديدا في (الدفاع) عن هذا الدين وفي (مهاجمة) اعدائه ،شديد الافراطفي (فجوره) علىشدة افراطهفي (تقواه)٠

وقد توصل الى هذا الرأي بما ورد من ان والد الشاعر كان (نصرانيا) اسمه (تدوس) ، وهنا أخذ يستعرض قراءات هذا الاسم وهل هو (تدوس) أو (بدوس) أو (ثدوس) ولكنه رجح اخيرا رأي (مرغليوث) بانه (ثدوس) وجعل هذه الكلمة أقرب احتمالا الى الصواب ، وانها (ربما كانت مجزوءةمن ـ ثيودوسيوس ـ اليونانية)[٣] ، فجرى على طريقة البعض من المولعـــين بفلسفة (الاشتقاق) في ارجاع بعض الالفاظ الى اصول يتوهمونها بمجـــرد

---

(٣) المؤلف ١٠

المشابهة في بعض مبانيها[٤] •

وكان الدكتور طه حسين اقل اجهادا لنفسه في هذا ، فلم يزد على قوله : (وصواب هذا الاسم ـ ثيودوس ـ وهو اسم يوناني)[٥] ، وان كان اكثر ايهاما في زعمه : (ان هذا معروف عند معاصريه) • اما الغريب منه فقوله : (انهم كتبوه عنه ـ بعد موته ـ بقليل) •

دع ذا وعد القول عن هذا النحو من الاشتقاق فقد جعل للخيال مدى واسعا ، ومجالا تتزاحم فيه أغرب الاقيسة ، وأندر الاحتمالات[٦] مما لوعد في العلم لحق للتاريخ ان تؤدي الى اصالته سبل الظنون •

وكأن الدكتور فروخ لم يرد ان تخطر له كلمة (اوس)[٧] اثناء عملية الاشتقاق ، على علاقتها الماسة لورودها بالاصالة في نسب الشاعر ، مع اشارته الخاطفة ـ دون مناسبة ـ الى ما ورد في (التاج) بأن (سدوسا)

---

(٤) يذكرني هذا النحو من الاشتقاق بما زعمه صديق لي ان بعضهم ادعى : ان (شكسبير) الشاعر الانجليزي المعروف عربي الاصل عراقي المنبت فانه من (شيوخ الزبير) احدى نواحي البصرة ، وكان قد ارتحل عن أهله في سياحة طويلة انتهت به الى أوربا فطاف في أقطارها حتى استقرت به النوى في بلاد الانجليز ، فأقام بينهم ، وتعلم لغتهم فأتقنها كأحد أهلها ، ثم عالج نظم الشعر بهذه اللغة فأجاده الى حد بعيد ، وعد أعظم شعراء القوم ، فكانوا يطلقون عليه لقب (شيخ الزبير) ، ولكنهم ـ بطبيعة لغتهم ـ يلفظون الخاء كافا ثم ابدلوا الزاي بالسين لتقاربهما في المخرج وكسروا الباء وحذفوا أداة التعريف فقالوا (شيك سبير) وهكذا تحولت الكلمة الى (شكسبير) واصبحت علما له ، ونسى اسمه ولقبه وأصله ،وعرف بهذا الاسم ، وألحق بذيالك الأصل ، هذا ما زعمه ذلك الرجل عن اسلوب صاحبه فيالاشتقاق ، فان كان صادقا فيما نقل ، فما أشبه صاحبه بصاحبنا ، والا فقد أصاب النكتة ، ولعلني قد اصبت التمثل بها ••

(٥) من حديث الشعر والنثر ١٥٤ •

(٦) جدير بالخيال ان يتندر هنا في اشتقاق ظريف ، وهو ان نجعل من كلمة (الطائي) نسبا يونانيا فنزعم ان الشاعر كان يميل الى الفلسفة (السفسطائية) حيث يدعى انه مطلع على الفلسفة اليونانية • وانه حين أسلم عرف بأبي تمام (السفسطائي) وعلى منهج هذا النحو من الاشتقاق جرى في الكلمة اختزال ، فحذفت منها الاحرف الثلاثة الاولى على غير قاعدة للتخفيف ، فأعجب أبو تمام بهذا الاختزال الذي جرده من عنصره كما كان يرغب بسهولة وبغير عناء • وبادر الى انتحال هذا النسب الذي صنعته هذه المناسبة الغريبة في عملية لغوية بسيطة وعرف فيما بعد بأبي تمام (ال•••طائي) بالرغم من أكثر معاصريه الذين لم يصرح لهم بحقيقة أمره الا بعد موته بقليل ، فما أغربها فكاهة أن يعمد المنطق الى هذه المقاييس الباسمة •

(٧) اوس والد الشاعر أبي تمام •

رجل من طيء ، وليس لسدوس هذا ذكر في نسب الشاعر .

ظن الدكتور فروخ انه قد استوفى عناصر ادلته بتلك الجمل المقتضبة، وتوصل الى الرأي الاخير الذي (لايحتاج الى كثير من التحفظ في ابدائه) فقال : (ان ـ ثدوس ـ هذا كان من الجالية الرومية التي سكنت سوريةقبل الفتح الاسلامي ، او انه جاء الى هذه البلاد بعد ذلك)[٨] .

وسواء اكان هو الذى توصل الى هذا الرأي ، أم أوصله اليه الدكتور طه حسين ، ام كان كلاهما تبعا لمرغليوث ، فان شذوذه عن طريقة البحث يجعل التحفظ في أبدائه كثيرا ، ويجعله شديدا ايضا ، لانه مستمد من اضعف الروايات ومعتمد على اغرب الاقيسة، وليست الاختزالات فيالالفاظ مرتجلة، ولا يمكن ان يصطلح عليها بهذه السرعة النادرة ، فان الزمن هو الكفيل بهذا التطور اللفظي ، وان اطراد جديديه هو العامل على المحو والاثبات في اللغة ، وليس من سنن الطبيعة الاجتماعية ان تتجدد حجيرات اللغة باعمال فردية ، بل هي انتقال اجتماعي عام يسرى به الزمن البعيد ، ويغلب الا يجري على الاعلام .

أساس الرأي

اسند الدكتور فروخ الى ابن خلكان عبارة : (ان رأس الامرة التي خرج منها ابو تمام كان نصرانيا اسمه ـ تدوس ـ)[٩] وكرر ذلك[١٠] فجعل ابن خلكان هو القائل : (وقد لفقت له نسبة الى طيء) .

والواقع ان هذه ليست بعبارة ابن خلكان ، وليس هذا برأيه ، وانما هي مضمون تعليق نقل في كتاب (وفيات الاعيان) لابن خلكان منسوبا الى

---

(٨) المؤلف ١٠ .
(٩) المؤلف ١٠ .
(١٠) المؤلف ١٣ .

الآمدي ، مع بيان افترائه وزيفه منسوبا الى ابن خلكان •

ولعل الدكتور طه حسين قد شعر بضعف هذا النقل فلمح اليه تلميحا[١١] • يسهل به التخلص منه برشاقة والتبرؤ من تبعة هذا التدليس حين الحساب الادبي ، فان عبارته في كتاب الوفيات كما يلي بعد ان اورد نسب ابي تمام[١٢] :

(••• وذكر الآمدي في الموازنة : والذي عند اكثر الناس في نسب ابي تمام ان اباه كان نصرانيا يقال له تدوس العطار ، فجعلوه اوسا ، وقد لفقت له نسبة الى طيء) قال : (وليس فيمن ذكر من الآباء من اسمه مسعود) وعلى هذا فيكون (ذلك النسب باطلا من عمله) ، قال : وذكر الآمدي هذا في قول ابي تمام :

ان كان مسعود سقى أطلاله   سيل الشؤون فلست من مسعود

ثم أجاب : بان هذا البيت لايدل على ان مسعودا من آبائه ، بل كما يقال : ما أنا من فلان ولا فلان مني ، يريدون البعد منه والأنفة ، قال (ومن هذا قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ـ ولد الزنا ليس منا ـ) •

ومما استدل هنا على بطلان النسب بانه (لو كان صحيحا لما جاز أن يلحق طيئا بعشرة آباء) فأجيب على هذا بأنه (قد سقط بين قيس ودفافه[١٣] ستة آباء) • وأشير الى ورود النسب كاملا في تاريخ الخطيب البغدادي •

ولكن الدكتور طه حسين بقي مصرا على ان النسب لايزال محتاجا الى ستة آباء ، وجزم بانه مصنوع ممن لايحسن وضع الانساب[١٤] • واشار الى مافي الوفيات ، ولم يذكر كيفية وروده فيه ، ولا أعلم وجه حرصه على هذه الرواية ، وعدم التفاته الى ما أحيطت به من الملاحظات •

---

(١١) من حديث الشعر والنثر ١٥٥ •
(١٢) وفيات الاعيان ١/١٥٠ •
(١٣) قيس ودفافة من آباء أبي تمام في نسبه •
(١٤) من حديث الشعر والنثر ١٥٦ •

غير ان لى على ورود هذه الرواية في كتاب الوفيات ملاحظة مهمة ،فقد اكتنفه من الغموض ما يجعلني اجزم بانها ليست من اصل الكتاب ، وذلك للامور التالية :

اولا ، اذا كان ابن خلكان يعلم بان النسب كامل في تاريخ الخطيب البغدادي فما الذى منعه من تصحيحه ونقله كاملا ، وينهى كل اعتراض يرد حوله ؟!

ثانيا ، اورد ابن خلكان في وفياته ابياتا لابن الشجرى في ترجمته[١٥] جاء فيها :

وحتى متى تفني شؤونك بالبكا   وقد حد حدا للبكاء لبيد ؟

ثم اعقبها بقوله : والى هذا اشار ابو تمام ، فقال :

ان كان مسعود سقى أطلاله   سيل الشؤون فلست من مسعود
ظعنوا ، فكان بكاي حولا كاملا   ثم ارعويت ، وذاك حكم لبيد

قال : وذكر الصولى : ان مسعودا هذا هو اخو ذى الرمة الشاعر ، وكان ينهى اخاه عن الاستمرار على البكاء في الديار ، فقال فيه ذو الرمة :

عشية مسعود يقول ، وقد جرى   على لحيتي من واكف الدمع قاطر :
أفي الدار تبكي ـ اذ بكيت صبابة ـ   وانت امرؤ قد حلمتك العشائر ؟!

فيقول ابو تمام : ان كان مسعود قد خالف رأيه ، وبكى الاطلال بكاء طويلا ، فأنا لا أبكي اكثر مما حدده لبيد بن ربيعة في قوله لبنتيه :

الى الحول ،ثم اسم السلام عليكما   ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والى هذا يشير ابو تمام في قوله :

ظعنوا فكان بكاي حولا كاملا   ثم ارعويت ، وذاك حكم لبيد

---

(١٥) وفيات الاعيان ٢/٢٤٣ .

فلو كان ابن خلكان هو الذى ناقش ذلك الخبر المنسوب الى الآمدي لكان اشار الى هذا الشرح ، ولم يكتف بذلك التأويل اللفظي ، مع ان ذكره هناك للاحتجاج به اولى من ذكره في ترجمة ابن الشجري للائتناس بأدبه •

ثالثا ، ان الرواية اسندت الى كتاب (الموازنة) للآمدي ، مع ان هذا الكتاب خال منها ، ومن ما يشير اليها أصلا ، كما ان في تسمية الكتاب اعترافا منه بطائية ابي تمام ، وعنوانه : (كتاب الموازنة بين الطائيين ابي تمام والبحترى) هذا فضلا عن أن الامدي يكتفي غالبا عن ذكر ابي تمام بلقبه (الطائي) •

على اني اتحفظ في هذا النفي بما ذكره الاستاذ احمد حسن الزيات في مجلته[١٦] من أن لكتاب (الموازنة) بقية لم تطبع ، وان كنت ارجح بان هذه البقية خالية ايضا من هذا الخبر لما ذكرت من تسمية الكتاب ، والاكتفاء بذكر اللقب غالبا ، ولان السياق يقضي بايراد النسب قبل مناقشة الادب •

والذى ارجحه ان هذه الرواية كانت تعليقا كتب على مخطوطة الوفيات من قبل احد الناس ، واسند الى الآمدي لما عرف به هذا الرجل من التحامل على ابي تمام ، فاثبتت في الحاشية مع مناقشتها ، ولما طبع الكتاب ألحقت بالاصل ظنا انها منه ، وليس هنالك ما يدعو الى التأمل والتحقيق •

تخريج الرواية

وهنا نعود ادراجنا للتحقيق عن أصل هذه الرواية ، وتخريجها حسب القواعد المرعية في تصحيح الاخبار ، ولقد تتبعت مظانها فلم أجد لها غير طريق واحدة جاءت بصيغة (التمريض) الدالة على بطلانها ، وذلك للجهالة بالمدار الذي اخذت عنه ، وقد حكم العلماء ، في الاخبار بان العبرة بالثقة ، وان المجهول لاحجة فيه •

---

(١٦) مجلة الرسالة العدد ٦٨٢ •

ولهذا الحكم اثره البليغ في رد هذه الرواية ، فقد تجاوز اللؤم بخصوم الشاعر الى ان هجاه بعضهم بعد وفاته ، وليس منتظرا من هؤلاء وامثـالهم ان يتورعوا من اختلاق الطعن في نسبه بعد أن لم يضع الموت حدا لعدائهم ، وخليق بالمحقق ان يتوقف ـ على الاقل ـ دون الاخذ بروايات المجهولين اذا كان فيها حكم على من يكثر اعداؤه ، ويلؤم خصماؤه ، ولا يبطل التواتر بأخبار الآحاد ، فكيف اذا جاءت بصيغة (التمريض) كهذه الرواية التي انفرد بها الصولى وحده وحكاها عن اناس مجهولين ، فقال[١٧] :

« قال قوم : ان ابا تمام هو حبيب بن بدوس النصراني ، فغير فصير أوسا » •

ويلاحظ أن الصولي لم يكن مطمئنا من صحة هذا الخبر ، فاكتفى عن تجريحه بصيغة اسناده ، وبنقله في باب (ما ورد من معائب ابى تمام) ، هذا بعد ان نقل الروايات الصريحة عن ادبه ونسبه في الابواب المهمة من كتابه •

وقد اوردها الخطيب البغدادي[١٨] بالاسناد التالى :

« عن علي بن أيوب القمي ، قال : أنبأنا أبو عبيد الله المرزبانى :أخبرني محمد بن يحيى الصولي ، قال : قال قوم : هو حبيب بن تدوس النصراني فغير فصير أوسا » •

وهذه هي نفس الرواية التي نص عليها الصولي ، وقد اكتفى الخطيب عن الاشارة الى ضعفها بصيغة اسنادها ، ثم انه نقلها بعد ان سرد نسبه (الطائي) كاملا كما تداوله مؤرخوه •

وطريقة المؤلفين القدماء معروفة في استيعاب كل ما يرد حول الموضوع مما صح منه أو سقم ، ولهم في تمييزها مصطلحات للتفريق بين الصحيح والسقيم ، والراجح والمرجوح ، وذلك كموطن نقلها في تسلسل البحث

---

(١٧) اخبار أبي تمام ٢٤٦ •
(١٨) تاريخ بغداد ٢٤٩/٨ •

بالتقديم تارة او التأخير طورا ، وكالاكتفاء بصيغة اسنادها، فاذا دعت الضرورة لمناقشتها أخذ القول حينئذ مأخذه •

وهذا الخبر نقله الصولي والخطيب البغدادي بدون مناقشة اكتفاء بموطن النقل وصيغة الاسناد ، ولكنها نوقشت في (الوفيات) لانها لم تنقل بنصها ، فان التصرف في عبارتها والتماس الادلة على اثباتها مما دعى الى مناقشتها والرد عليها ، فأخذ القول ذلك المأخذ الذى ذكرناه •

وقد اشير في تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر الى ما جرى عليه المتقدمون من الاستيعاب لكل ما ورد حول الموضوع ، بانهم « لم يكونوا ليتهاونوا بشيء الا ذكروه وان كان ساقطا » قال : « ولعل ذلك على سبيل التفكهة ، او التعريف بسقوط الخبر » •

ومع ذلك نرى البديعي أغفل ذكر هذه الرواية مع انه استوعب كثيرا من أخبار الشاعر ، ولم يغفل ذكر نسبه في كتابه (هبة الايام فيما يتعلق بابي تمام) • وقد اعتاد هذا الرجل ان يستطرد الى كثير من الاخبار بمناسبات قريبة او بعيدة ، ولابد ان يكون وصله هذا الخبر ، وهو كما يزعمون شائع عند اكثر المعاصرين لابي تمام •

والحقيقة انه لو كان شائعا ـ كما يزعمون ويدعون ـ لما انفرد به الصولى وحده ، ولعرف اولئك (القوم) الذين رواه عنهم ، أو أيدته رواية من طريق اخرى ، ولحصل اختلاف في النص يشير الى تعدد الخبر ورواته الاولين ، وليس الاختلاف في ضبط الكلمة (بدوس) او (تدوس) بين الصولي والبغدادي بدليل على الاختلاف الذى اعنيه ، اذ ليس اختلافا جوهرياً في اصل عبارة المتن كما ان الاسناد هو هو لم يختلف ، ولا ريب ان الكلمة قد حصل فيها تصحيف مما يجري في مثلها غالبا ، واما عبارة (الوفيات) فلا عبرة بمخالفتها لمصدرها الاول ، وقد قلنا كلمتنا في غموضها وان الايهام مقصود فيها قصدا •

وارى ان الصولى كان جد متحفظ في التحديث بهذا الخبر ، فاختص بها المرزباني وحده ، ويستفاد ذلك من قول المرزباني فيما اسنده الخطيب : (اخبرني الصولى) ، وقد تحفظ المرزباني بدوره فأغفل ذكره في كتابه (الموشح) في الفصل الذى نقد فيه شعر ابي تمام ، كما انه لم يشر اليه في ترجمة الشاعر من كتابه (معجم الشعراء) ، ولا يرد على هذا بان المرزباني قد انبأ جماعة منهم القمي بهذا الخبر لقول القمى: (أنبأنا المرزباني) لانه لم يسجله في كتابيه مع علمه به اذ لايستحق التسجيل في كتابين علميين، كما ان الاجدر ان تضعف العناية بالاخبار اذا وردت بطريق (الانباء) كما رسم ذلك علماء الاثر ، فكيف بها اذا حكيت عن (قوم) مجهولين ؟!

وبعد : فمهما تكن وجهة الآراء فنحن مقتنعون بصحة ما نص عليه المؤرخون ، واثبتوه من النقول التى تدعمها قواعد التصحيح المرعية ، مع تحقق بطلان ما ذهب اليه المخالفون بما لدينا من الوثائق ، وما نراه من طرق التدوين ، قياسا على شروطهم في تصحيح الاخبار ونقدها ، ولعمرى ان هذا اصح الطرق واثبتها في الترجيح ، هذا مع ان التفاهم لايقع الا للجهة المستقيمة ، وعلة البعد في شقة الخلاف بين الآراء عدم الالتفات الى قوة الدليل ونصوعه لرغبة شعوبية او ميل غير قومي •

ولا ريب انه لو تأسس القول على احتمالات لايتحقق وجودها ، أو مماثلات في ابنية اسماء مختزلة أو مخترعة من بعض الوجوه ، لما بقيت كلمة الا امكن القول بارجاعها الى الاقتباس من كلمة اخرى ، او مماثلتها لغيرها مهما كانت ناحية الموافقة ضعيفة •

التصرف بالنص

اقتبس الدكتور فروخ من النص ما يريد ان يثبت به رأيه ثم انه اخذ يتصرف فيه بما أبعده عن ادائه ، وهذه هي عين الطريقة التى لم نرضها

للدكتور طه حسين ٠

فالرواية التي اوردها الصولى (عن قوم) ، نسبت في الوفيات الى الآمدى ، بأنها (عند اكثر الناس) فاذا بالدكتور طه حسين يسجل بانها (عند اكثر المعاصرين لابى تمام) ، وهذا خلاف القول المنسوب الى الآمدي للاصل الوارد من الصولى ، ومعلوم ان الصولى هو أقدم من كتب عن الشاعر ، وهو ليس معاصرا لأبي تمام ، ولم يرد عنه غير ذلك الخبر ، وما اراه الا متعمدا اغفال اولئك (القوم) ، فكأنه اراد الزيادة في الحط منشأن خبرهم ، ولو كان له سبيل الى الواقع لافاد به العلم لما يترتب عليه من حكم تتغير به ناحية البحث في حياة شخص له اثره في البيان فينصرف الى امة في حياة رجل ٠ وهكذا تتعين العوامل النفسية في التربية باتجاهات ظروفها الاجتماعية والقومية واستنباط قواعد التعرف بالعبقرية من ادب الاقوام والشعوب ٠

ومن تصرفات الدكتورين انهما نقلا عن الوفيات ذلك الخبر المنسوب الى الآمدى فنسباه الى ابن خلكان ، واهملا ما جاء في الوفيات من مناقشته والرد عليه فبينما كانت العبارة :

« قال الامدي » أمست العبارة : « قال ابن خلكان » ، وهذا ما يسمى (بالتدليس) الذي تتوارى به الحقيقة عن التاريخ بين العبارتين ٠

ثم ان الدكتور فروخ بدوره نقل الخبر بتعبيره ، فقال « ان رأس الاسرة التي خرج منها أبو تمام كان رجلا نصرانيا اسمه تدوس العطار » ٠

فاصبحت العبارة لاتفيد بان المدعو (تدوس) ابو الشاعر ، وانما هو رأس لاسرته التى خرج منها ويوضح ذلك ما ذكره من هجرة هذه الاسرة الى سوريا اثناء الفتح الاسلامي ٠٠ فكأنها هاجرت بعد انحدارها من تدوس وانتسابها اليه ، فيكون عهده سابقا لعهد الفتح الاسلامى ٠

هذا ما تؤدى اليه عبارة الدكتور فروخ ، وهو غير المفهوم الذى يقصده

اذ هو يعترف بان أبا تمام هو حبيب بن تدوس المزعوم وقد كرر ذلك غير مرة • ويلاحظ انه يذكره باسم تدوس (بالتاء المثناة فوقا) ناسيا اسم ثدوس (بالثاء المثلثة فوقا) وهو الاسم الذى ذهب اليه كما سبق •

ومن تصرفه انه اسند التغيير لاسم تدوس هذا الى ولده ابى تمام فذكر[19] انه هو الذى غير اسم والده مع ان الرواية لاتسنده الى شخص معين، فهي في عبارة الصولي ، ونقلها البغدادي : « فغير فصير اوسا » ـ بالبناء للمفعول ـ وفي العبارة المنسوبة الى الامدى في الوفيات « فجعلوه اوسا »وكلتا العبارتين لاتشير الى ان ابا تمام هو الذي غير اسم والده •

وقد لاحظت ان الدكتور فروخ غير موفق في انتزاع الاخبار بتصرفه فقد نقل قول ابن رشيق[20] : « ان ابا تمام كان من المعدودين في اجادة الرثاء ، ومثله عبدالسلام بن رغبان : ديك الجن ، وهو اشهر من حبيب ، وله فيه طريق انفرد بها » فأخذ العبارة بتصرفه على النحو الاتي[21] : «قال ابن رشيق : ان ابا تمام أخذ عن ديك الجن الاجادة في الرثاء » •

وعليك التعليق •

حصر المهن

اهتم الدكتور فروخ بما ورد من ان والد حبيب كان (عطارا) ، وهذا ما لم يشر اليه الصولى في أصل الرواية ، ولا الخطيب البغدادي في نقلها عنه عدا تلك الرواية المنسوبة الى الامدى في (الوفيات) ، وقد بينت ما يكتنفها من العلل التى جعلت جوها العلمي غامضا •

ولم يقف الدكتور فروخ عند حد هذه المهنة بل استحسن أن تكون

---

(١٩) المؤلف : ١١ •
(٢٠) العمدة : ٢/١١٩ •
(٢١) المؤلف : ١٢ •

هذه (العطارة) مهنة اخرى ، وهي بيع الخمر ، ولعله التمس ذلك من خبر اورده ابن عساكر في ترجمة ابي تمام من تاريخه ، وقد اريد به الغض من الشاعر ساقه على اصل منهج القدماء في استيعاب الاخبار ، ولكن بعد ان ذكر ما يثق به من الاخبار ، فاورده بصيغة (التمريض) طبعا : ان والد الشاعر كان يبيع الخمر بدمشق ، وان ولده حبيبا اشتغل عند حائك ـ أو قزاز ـ ثم ذهب الى مصر يسقى الماء (بالجرة) في المسجد الجامع •

وقد اراد الدكتور فروخ ان يضع دليلا على نصرانية هذه الاسرة فوضع قاعدة عامة : بان بيع الخمر « صنعة كانت محصورة في غير العرب وغير المسلمين »[22]

أما النفسية السائدة في عصر أبي تمام • وفيما بعد عصره • فهي نفسية اسلامية لم تختلف في تربيتها واحكامها عن دستورها الاقوم مهما دخل النفوس من ضروب التساهل في بعض امور التقوى ، وقد كان الرأى العام شديد الحرص على حرمة حدود الله ان يتعدوها ، ولم تتعطل تلك الحدود الا في عصرنا الذى فترت فيه القلوب عن حرارة الايمان ، ومع ذلك فلا يزال اهل الفسق يشعرون بالمقت امام الرأى العام الذى لاتزال فيه بقية من خلق ودين امتدادا لماكان عليه المسلمون من اخلاق كونها الاسلام ، ولقد كان خلفاء الدولة الاسلامية في عصورها الزاهرة هم حماة حدود الله ان يتعداها اهل الزيغ ، حتى ان من لم يكن يتحرج من الموبقات من اولئك الخلفاء لايسعه ان يجاهر بها ، او يتعدى حدودها ، وهو يعلم انه عاهل امة تقول في قنوتها كل يوم : (ونخلع ونترك من يفجرك) •

واذا وجد المجان مجالا لخلع العذار فذلك بترددهم على الديارات التي لاتتظاهر ببيع الخمر ، وانما يأتيها المترددون عليها بصفتهم ضيوفا ،

---

(٢٢) المؤلف : ١١ •

وهنالك يجرى من ضروب الاغراء مالم يكن من شروط اهل الذمة[٢٣] •
وهذا اول ما بدأت به أساليب التبشير من عرض المغريات على اهل الهوى والشباب ••!! ، وتلك هي من وسائل حرب الفضيلة التي يدعو الاسلام اليها ، ولازالت تلك دعواهم ، اما لو ظهرت ريبة من أصحاب الديارات عهدئذ بطلت ذمتهم واخذتهم ما تفرضه عليهم شروط الذمة والعهد •

ومن المحال ان يتسنى لغير المسلمين فتح حوانيت لبيع الخمر في بلاد اسلامية يحرم دستورها الخمر ، او يقدم الفاسقون من المسلمين على ابتياع تلك البضاعة المحرمة ، وهم يعلمون جيدا ان في ذلك اعلانا للبينة عليهم وسبيلا الى اقامة الحدود الشرعية المفروضة على متعديها • فخبر هذه المهنة دعوى باطلة لاتعدو السنة خصوم الشاعر اقتضتها اساليبهم في التهكم البغيض، فكانت مما قيل في التشهير به •

وكذلك لايصح عندي ما زعموه من مهنة الشاعر نفسه سواء في دمشق او في مصر ، ولا ارى انه اشتغل في حياكة ، ولا في سقاية •

ومن الملاحظ هنا أن مثل هذه المهن تتردد كثيرا بمثل هذه الجمل المبهمة ، في مطالع اخبار الشعراء الكبار كأبي نواس وأبي الطيب المتنبي • فقد ذكروا ان أم ابي نواس كانت (تحوك) الثياب ، وان ولدها أبا نواس اشتغل أيام طفولته عند (عطار) ، كما ذكروا ان المتنبي كان أبوه (سقاء) في الكوفة ، فكأن (الحياكة) و (العطارة) و (السقاية) كانت من المهن الموقوفة على اكابر الشعراء وآبائهم ، ولا أرى علة لحصر هذه المهن دون سواها على هؤلاء الشعراء الا ان يكون بها سبيل الى الزراية بهم •

واما قولهم : ان ابا تمام ذهب الى مصر يسقى الماء (بالجرة) ، فقد أشار العلامة مصطفى صادق الرافعي رحمه الله[٢٤] الى ان كلمة (الجرة)

---

(٢٣) ان كتاب الديارات للشابشتي حافل بهاتيك الاخبار المفصلة لجميع حياتهم المغرية وحياة أهل المجون من الفساق المسلمين ، وكذلك معجم البلدان لياقوت (م • الدير) •
(٢٤) وحي القلم ٤٤٦/٣ طبعة الاولى ١٩٤١ •

فضلة في التعبير اريد بها الزيادة في الغض من ابي تمام •

ولعل كل ذى قيمة تاريخية لم يسلم من نحو هذه الدعابات البغيضة التي لو صحت ما بلغت بأهلها درجة الهوان اذ ليس بها ما يمنع من نيل المجد والشرف ، وانما الفضل ان ينال المرء ما يناله من سؤدد مهما كانت مهنته او مهنة أبيه • ونحن اذ ندفع ذلك عنه لانقصد أن ندرأ عنه ما يظنونه من هوان بهذه المهن التي هي في ذاتها محترمة ، ولكن الخبر لم يخلص من دلائل الزيف ، ولزام على المحقق تصحيح التاريخ اذا خرج به العبث عن منطقه العلمى •

قرية جاسم

المهم من ذكر هذه القرية هنا الاشارة الى اصالة الشاعر في عرب البادية بموقع هذه القرية فهي مسقط رأسه كما أجمع على ذلك مؤرخوه •

وهي من القرى التي استحدثت في وسط البادية لتكون كمحطة تتصل بها مصالح الاعراب مع أهل المدن ، ولذلك يقتصر سكناها على البدو الذين يهجرون الصحراء لدواع اقتصادية واجتماعية ، ويدلنا على اعرابية هذه القرية قول عدى بن الرقاع العاملى :

لولا الحياء ، وان راسي قد عسا فيه المشيب لزرت ام القاسم
فكأنها بين النساء أعارها عينيه احور من جآذر جاسم

ومن المألوف ان الجآذر تسكن الصحارى ، وما كان من الواحات والقرى الاعرابية ، فقرية جاسم من تلك القرى التي لاتبعد كثيرا عن مراتع الظباء حتى نسبت اليها • وحتى حق لهذا الشاعر أن يضرب المثل بما حولها من الجآذر ، ويشبه بأعينها ، فهي موطن بدوى له نوع خاص من الحياة في تقاليد اهلها ، وعاداتهم ، وأسلوب معيشتهم ، وهذا النوع من الحياة

لا تستسيغه الجاليات الاجنبية بحال ، لانها لم تهاجر الى البلاد الاسلامية لتقطن البوادى وأشباه البوادى من قرى الاعراب التى اقتضتها هجرتها ولكنها تقضى عليها ان تسكن المدن التى تتوفر فيها المصالح •

ومن هنا نتوصل الى القول بصحة اعرابية هذه الاسرة ، واذا صح انها من الاسر العربية ، فما الذى يمنع ان تكون منسوبة الى عشيرة (طيء) ،وفيه ايضا تعليل لاتجاه الشاعر في العصبية القبلية والاندفاع القومي كما يمثله ادبه وتشير اليه اخلاقه وعاداته ، حتى زيه الاعرابي الذى لم يخلعه الا في أيامه الاخيرة ، بعد ان كان يظهر به في الاوساط الادبية ، وفي قصور الخلفاء •

وبعد ، فلا يحق ان تتهم الاجيال بتواطئها على ماكان انتحاله معروفا عند اكثر الناس أو اكثر المعاصرين ، وان تعتمد على أقوال تأيد بطلانها بقواعد التصحيح المرعية لمجرد ظنون وملابسات لاتشتبه مع طبيعة التفكير الا بتكلف شاق ، او لمجرد ان المدن لاتخلو من الجاليات الاجنبية ، فيلزم ان يجرد العربي من عنصره لهذه الجاليات مادام له شأن مهم استكثارا عليه أن يكون له ذلك الشأن كأن العبقرية تخرج عن طوق هذا العنصر •

ولا اشد على العرب من ان ينكر عليها (أبناؤها) عبقرية البيان ، متناسين أن لهم ماضيا مشرفا في العلم والمعرفة ، وان لغتهم بلغت من السعة والمرونة على اداء الافكار ماصلحت به ان تكون لغة الوحي الذى جاء لهداية الناس عربهم وعجمهم ، والله اعلم حيث يجعل رسالته •

وما هذه الاراء في انكار العبقرية العربية الا مما نفثته سموم الاستشراق لبث الشعور بالنقص في النفوس العربية ، وبذلك تزول الثقة بالنفس ، وتصبح تبعا لكل امة معادية ، لا لتكون امة وسطا قائمة بذاتها •

طيء وأيـاد

اشار الدكتور فروخ الى قبيلة (اياد) بمناسبة ما ذكره عن القاضـي احمد بن ابي داود الأيادي ممدوح ابي تمام ، فعد ايادا هذه « من عـرب الجنوب الذين منهم بنو طيء »[٢٥] .

والمعلوم ان عرب الجنوب الذين منهم بنو طيء هم القحطانيون ، واما اياد فليست بقحطانية بل هي من عرب الحجاز العدنانيين ، وقد ذكر علمـاء الاثر : ان ايادا ومضر وربيعة وأنماراً هم أبناء نزار بن معد بن عدنان ، قال ابن الجوزي[٢٦] : « ولد نزار بن معد بن عدنان اربعة .. » فذكر منهـم ايادا ، ثم قال: « ومن هؤلاء تشعبت بطول العدنانيين كلها » .

وذكر الماوردى ذلك[٢٧] ، واعقبه بالقصة المتداولة عن اختلاف اولاد نزار في ارث أبيهم بعد موته ، واحتكامهم الى الافعى الجـرمى ، وحـكاية فراستهم في اقتفاء اثر بعير ، في خبر مشهور ، ولا يهمنى مدى صحة القصة قدر ما يهمنى فيه عدنانية اياد .

ومن المنقول عن العبر : « ان ديار اياد كانت الحرم مع العـدنانيين الى ان تكاثر بنو اسماعيل ، وانفردت مضر برياسة الحرم ، فخرج بنو ايادالى العراق ، ولهم فيه حوادث وأخبار[٢٨] ، وذكر المسعودى[٢٩] كيف غلبت اياد على العراق وبقي أمرهم فيه الى أن اوقع بهم سابور ذو الاكتاف .

(٢٥) **المؤلف** ٨٠ .
(٢٦) مناقب الامام أحمد ٤ .
(٢٧) اعلام النبوة ١١٨ في المطبعة البهية ١٣١٩ .
(٢٨) سبائك الذهب ٢٠ .
(٢٩) مروج الذهب ٢١٥/١ .

وفي ادب ابي تمام ما يؤيد عدنانية اياد ، فقد ذكر البديعي[٣٠] كيف ان القاضي احمد بن ابي دواد بلغه ان ابا تمام فخر بالقحطانية على مضر ، بقوله :

تزحزحي عن طريق العز يا مضر   هذا ابن يوسف لايبقى ولا يذر
هو الهزبر الذى في الغاب مسكنه   وآل عدنان في ارضيهم بقر
له حسام من الرأي الاصيل اذا   ما سله جاءت الايام تعتذر
عضب المضارب اما نكبة طرقت   ماض ، صياقله الاطراق والفكر
وانما يمن نور تضي لكم   كما يضي لاهل الظلمة القمر
لولا سيوف بني قحطان ما قرئت   بين الصفا وحطيمى زمزم السور
ولا احل حلال الله في بلد   من الانام ولا حجوا ولا اعتمروا

فغضب عليه القاضي وحجبه ، فاعتذر اليه بكثير من القصائد متنصلا من هذه القصيدة وانها قيلت على لسانه ، ليغيروا منزلته عنده كقوله :

اتاني عاثر الانباء تسرى   عقاربه بداهية نآد
بانى نلت من مضر وخبت   اليك شكيتي خبب الجواد
لقد جازيت بالاحسان سوءاً   اذن وصبغت عرفك بالسواد
وكيف وعتب يوم منك فذ   اشد على من (حرب الفساد) ؟

وفي هذه القصيدة قوله :

فان يك في بنى أدد جناحى   فان اثيث نبتى في اياد
هم عظم الاثا في من نزار   واهل الهضب منها والنجاد

ومع هذه القصيدة التي تشير الى عدنانية هذه القبيلة كثير من القول .
واما بنو طيء فهم من عرب الجنوب كانوا ينزلون الجوف من ارض

---

(٣٠) هبة الايام ٢٢٥ .

اليمن ثم نزحوا الى نجد على اثر نزوح ازد السراة بعد انهدام سد مأرب، وسكنوا الجبلين المعروفين بأجأ وسلمى ثم عرفا بعد بجبلى طيء •

وقال ابن خلدون[٣١] : « واما بنو طيء بن أدد ، فكانوا باليمن ، وخرجوا منه على اثر خروج الأزد ، وقصدوا الحجاز ، ونزلوا (فيد) و (سميراء) في جوار بني أسد ، ثم غلبوهم على (أجا) و (سلمى) من بلادهم واستقروا بهما ، وافترقوا لاول الاسلام في الفتوحات •

وبعد ، فان من يخفى عليه رد الانساب الى أصولها مع توفر المصادر في ذلك ، كان أشد عليه خفاء ان يرد الاسر الى انسابها ، مع ان القول فيها لايعدو القرائن ، وفي الحكم عليها من المرونة ما يحتاج الى التأمل والتحقيق •

عصر أبي تمام السياسى

ان الزمن الذى عاش فيه أبو تمام جزء من عصر ثارت فيه المنازعات بين العنصرين العربي والاعجمى في سبيل الرياسة والاستئثار بالحكم ، وما القضاء على الدولة الاموية الا من سلسلة تلك المنازعات انتهت بفوز هذه العناصر ، وتوسع نفوذها ، ومن أثر ذلك أن اصبح اكثر رجال العباسيين وأوسعهم نفوذا هم من غير العرب ، لا كما زعمه الدكتور فروخ[٣٢] ،وفي زمن المأمون كان الفضل بن سهل واخوه الحسن من أعظم المتنفذين لاسيما بعد ان بنى المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل[٣٣]

---

(٣١) تاريخ العبر : ٢/٢٥٤ •

(٣٢) المؤلف ٣١ •

(٣٣) ان العرب قد نفروا من تصرفات المأمون في سياسته العامة والخاصة ، وكان زواجه من ابنة الحسن بن سهل من أشد ما جعل العرب يشعرون ببعد الشقة بينهم وبين الخليفة ، ومن طرافة ما يتجلى فيه نفور العرب من هذا الزواج ان أحد شعرائهم قال فيه :

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا امام الهدى ظفر ت ولكن ببنت من ؟

فتستر بحجاب من الايهام ، وأجرى القول على فن من التورية لا يعلم فيها من قوله : ببنت من ، أفي الرفعة وعلو الشأن أم في الدناءة والخسة ؟

ولقد بدأت رغائب هؤلاء الحانقين على العرب تنفذ بابتداء الدولة العباسية ، فان أول خلفائهم فتك بالامويين فتكا تأباه الرحمة والمروء ، وهم أبناء عمومتهم ، ولاشك في ان حاشيته الاعجمية الحاقدة على العرب والاسلام هي التي اجترمت في سفك تلك الدماء بتحريضها السفاح واعوانه على ارتكاب ذلك الامر الاد[٣٤] .

ثم اخذت الاجرامات تتوسع بعدما فقدت الدولة حزم المنصور ودهاء الرشيد ، فأثيرت فتنة الاخوين : الامين والمأمون[٣٥] ، فلما قتل الامين وخلص الامر للمأمون استأثر بالزعامة الفضل بن سهل ، وبعده أخوه الحسن ، وكان لهما يد في تحويل مقر الخلافة الى خراسان ، فنجمت ثورة بقيادة ابراهيم بن المهدي الذي خلع ابن أخيه المأمون من الخلافة وبايعه الناس لو لم تقو العصابة الخراسانية على احباط ذلك ، واعادة الخلافة الى بغداد .

---

(٣٤) من أمثلة تحريض حاشية السفاح على سفك دماء الأمويين ، انه كان قد منح حياة البعض منهم ، فلم يرض ذلك الطائفة الخراسانية فدخل احد شعرائها وانشد أمام السفاح :

لا يغرنك ما ترى من رجال	ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى	لا ترى فوق ظهرها أمويا

فما كان من السفاح الا أن خفر ذمامه ، وأمر بقتل كل أموي يقع في أيديهم ، وقتل من أمنهم بسيوف هؤلاء الحاقدين .

(٣٥) أثار الخراسانيون دعاوة شعوبية واسعة ضد العرب باسم هذين الاخوين ،فاتخذوا من الأمين مايمثل العرب لأن أمه عربية ، ومن المأمون ما يمثل الفرس لانه ابن أمة فارسية ، ففضلوا المأمون على الامين وجعلوه أجدر من أخيه بالخلافة ، ويرمون بذلك الى تفضيل الفرس على العرب وأنهم أحق منهم بالملك ، ولم يكن هذا حدهم بل تجاوزوه الى وصفهم الامين بأسوأ الصفات كالبله والغباء وجمود الشعور والحمق والاسراف في الفجور ، ووصفوا المأمون بخير الصفات فجعلوه مثالا للعلم والذكاء والعبقرية والنبوغ والحزم والرجولة والعقل والحلم ، ولا يخفى انهم يرمون الى أبعد ما بين الامين والمأمون ، فهم يرمون العرب بما رمي به الامين ، ويقصدون تفضيل الفرس على العرب بما يفضل به المأمون ، وقد امتد هذا الزعم حتى أضفى عليه المبشرون من مستشرقي عصرنا سمة علمية ثم أخذ مجراه الى مناهج ثقافاتنا العالية بسعي ثلة من أبواق هذه النغمات ، وما تجريد أبي تمام من عربيته ، الا ضرب على هذه النغمة مستكثرين نبوغه على العرب فنسبوه الى اليونان .

وكان الفضل يحجب وفود العرب عن المأمون طيلة مكثه فيخراسان ليبعده عن اتجاه الشعور العربي العام(٣٦) ،

في هذا العصر المحتشد بالشغب ضـد العرب ، وفي تلك الظـروف المضطربة بشتى النزعات القومية ، كان أبو تمام أشد تعصبا للعرب • وأعذب تغنيا بمآثرهم ، وطيب أعراقهم ، وبأيامهم الصالحة ، وديارهم النازحة ، وبفرسانهم الانجاد ، وسمحائحهم الاجواد ، ولم يشذ في كل ما قاله عن روح العربي الصميم ، أيام كان العرب لا شأن لهم ولا مكانـة سياسية في هذه الدولة الاعجمية لقبائلهم التي آثر اكثرهم ان يعودوا الى البادية على ان يقيموا وليس لهم من الامر شيء ، ويلقون مع ذلك ضروب الحقد من شتى العناصر ، وأنواع الاستهانة بكرامتهم من أولئك الشعوبيين والزنادقة ممن كثر سوادهم ، وتطاولت غوغاؤهم •

لقد ظل ابو تمام في هذا الصخب المزعج يستمد بيانه من تاريـخ العرب الحافل بالشهامة والمجد في أغلب ما نظمه من الشعر • ولم تدعه اليونانية المزعومة والرومانية المدعاة الى ذكر مفخرة للاغريق الذين لاداعي لانكار مآثرهم لو كان له عرق ينبض بدمهم ، مع ان كل ذي عنصر ظهر مفاخرا بعنصره ، حتى لقد استطاع الشاعر الشعوبي(٣٧) أن يفخر يفارسينه على العرب ، فيقول :

انمـا سـمي الفـوارس بـالفر ... س مضاهـاة رفعـة الانسـاب

فاتركي الفخـر يا أمام علينـا ... ودعي الجور • وانطقي بالصواب

---

(٣٦) من ذلك ان القائد العربي هرثمة بن أعين وفد على المأمون في خراسان ، وكان يريد ان يرفع له نصيحة لو كان سمعها ما وسعه غير اتباعها ، وذلك ما خشيه الفضل واخوه الحسن فحجباه عن الخليفة ، فاحتال للتوصل اليه بأن ضـرب الطبول تحت القصر الذى سـكنه عسى أن يدعوه المأمون ، ويسأله عن سبب هذا التطاول ، فيسمعه العذر مشفوعا بالنصيحة ، غير ان المأمون لم يدعه ، ووجد الفضل وأخوه بذلك سبيلا الى الوقيعة بهذا الرجل الناصـح الامين ، وأوغرا عليه صدر المأمون ، فأمر بسجنه متناسيا مـا سبق له من خدمة للخـلافة وحسن بلاء في سبيل رفع كلمتها واخلاص في الطاعة لها ، وبالاخير تمكن هذان الاخوان مناغتياله داخل السجن ، فقتلت معه تلك النصيحة البريئة •

(٣٧) هو اسماعيل بن يسار النسائي • وقد كان من أشهر الشعوبيين حقدا على العرب

واسألي ـ ان جهلت ـ عنا وعنكم كيف كنا في سالف الاحقاب
اذ نربي بناتنا وتدسو ن ـسفاهاـ بناتكم في التراب[٣٨]

وكان من امتداد هذا النزاع أن يأتي مهيار الديلمي قائلا :

أعجبت بي بين نادي قومها ذات حسن فمضت تسأل بي
سرها ما علمت من خلقي فأرادت علمها : ماحسبي ؟
لا تخالي نسبا يخفضني ، أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم وبنوا أبياتهم في الشهب
وأبي كسرى علا ايوانه أين في الناس أب مثل أبي ؟
قد كسبت المجد عن خير أب وقبست الدين عن خير نبي
فضممت الفخر من أطرافه سؤدد الفرس ، ودين العرب

فهل من حرج على ابي تمام ، وهو يعيش في هذا الجو الشعوبي الصريح السافر ، أن يجاري شعراء عصره فيتمجد بسؤدد الروم ، أو مجد يونان ، اذا صح انه يوناني أو روماني ؟!

لا حرج عليه في ذلك ، وله من مآثر اليونان والرومان ما يحق له أن يعتز به ويستمد منه مواطن الفخر ، ولكنه بالعكس من ذلك ، كان معتزا بالعربية اعتزازا جعله لا يفخر بالعرب فحسب بل يفضلهم وينتقص ممن عداهم ، وكأن الطبيعة هي التي انطقته ان يقول :

أبقت بني الاصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه ، وجلت اوجه العرب

---

(٣٨) قيل : ان أشعب سمعه ينشد هذه الابيات فلما سمع هذا البيت ، قال : أراد العرب لبناتهم غير ما أردتموه لهن ، فدفنوهن خشية العار وربيتموهن أنتم لتنكحوهن فضحك الناس وخجل اسماعيل . وقد أشار أشعب بهذا الى دين (مزدك) الفارسي المجوسي الذي يدعو الى الاباحية ، واليه اشار بشار بن برد وقد قالت له بعض الجواري : ليتنا بناتك فقال : أجل . ولكن على دين (مزدك) ، ومع ان أشعب مولي . لكنه أبى أن يقر اسماعيل على قوله هذا ، وانه ليدل على ان في الموالي من لا يقر برأي الشعوبيين .

وبنو الاصفر لقب أطلقه العرب على الروم ، ثم أن يسوي بين الزنج والروم ، فيقول :

الزنج أكرم منكم والروم والصين أيمن منكم والشوم

ولا يصح ان يقال : انه أراد أن يتظاهر بالعربية ليتقرب الى العرب وأمرائهم فان له مندوحة بموقف لا افراط فيه ولا تفريط ، فلا ينافق بانتحال النسب العربي ولا يسخط العرب بمتابعة الشعوبيين كما كان كثير من مسلمي العناصر الاخرى فيصدق بنسبه ، ويتقرب بأدبه ، وفي ذلك من راحة الضمير ما يغنيه عن التكلف المستمر في نكران أصله ، ونسيان أهله ، وهذا تاريخه يدلنا على انه كان يتقرب بأدبه قبل ان يتقرب بنسبه .

الولاء

ذكر الدكتور فروخ[٣٩] : « ان غير العربي اذا أسلم انتسب بالولاء الى قبيلة عربية أو بيت عربي أو أسرة عربية » ، فجعل الولاء صفة شاملة لكل مسلم من غير العرب ، وعد ذلك معروفا في تاريخهم ، وهذه مغالطة لا يصح أن تتخذ منها حقيقة تاريخية ، وان الرجوع الى اللغة يبصرنا بما كان يريده العرب من الولاء .

الولاء في اللغة من أسماء الأضداد ، وله معان منها : السيادة ، والرق ، والحلف ، والنصرة ، والقرابة ، والجوار ، والمصاهرة ، والمعتق من رقه . ولم يوضح الدكتور نوع الولاء الذي ينتسب اليه غير العربي اذا أسلم ، وهل في التشريع الاسلامي نظام خاص تسير الدولة بموجبه في معاملة المسلمين من غير العرب ..؟ أما اذا أريدت الغاية التي وضعتها الشريعة الاسلامية للامة ، فان المسلمين بعضهم أولياء بعض ، وأما المماليك الأرقاء سواء المعتقون

(٣٩) المؤلف ١٢

منهم أو الباقون على رقهم فليسوا هم كل المسلمين من غير العرب ، بل ولا القسم الغالب منهم ، على ان بين الناس سواء من العرب أو من غير العرب أقواما وجدوا حاجة اجتماعية تدعوهم الى عقد الولاء بالحلف أو الجوار أو المصاهرة ، وهذا النوع من الولاء جار منذ العهد الجاهلي وأقره الاسلام لما فيه من التكافل الاجتماعي الذي اليه يدعو تشريعه القويم ، ولكنه لا يجرد الناس من شعوبهم وقبائلهم أو بيوتهم •

أما أبو تمام • فلا إخال الدكتور يعده مملوكا رقيقا معتقا أو غير معتق ، كما ان التاريخ لم يحظ من أخباره بما يشير الى ولائه لقبيلة أو بيت أو اسرة لا في العرب ولا في غير العرب ، وانما تدل عبارات مؤرخيه على انه « من طيء صليبة »[٤٠] •

ولو كان مولى حقا لكان حريا أن ينضوي الى ولاء غير طيء من القبائل التي لها شأن في الدولة ، هذا مع العلم بأن الولاء عهدئذ كان يدور حيث المصلحة لانه وسيلة لتقوية مركز اجتماعي أو اقتصادي ، فيؤثر ولاء قبيلة تحقق له الغاية من هذا الولاء كقبيلة(أياد) مثلا ، فانه اتصل بزعيمها القاضي أحمد بن أبي دواد الأيادي الذي رآه أهلا بأن يمدحه بثلاث عشرة قصيدة دون أكثر ممدوحيه[٤١] ، مع ما لهذه القبيلة من شرف القربى بالخليفة في الصلة العدنانية بنزاريتها ، ولأن زعيمها كان من رجال الدولة المهيمنين لانه قاضي قضاتها ، ولانه حاكم أمور المظالم فيها ، وبالولاء الى قبيلته من العز ما لا ينبغي أن يفرط فيه الموالي ، وان له اسوة ببعضهم في تنقلهم بالولاء من قبيلة الى اخرى ، كما كان يصنع بشار بن برد وغيره من موالي ذلك العهد الذي آثر فيه أكثر العرب أن يعودوا الى باديتهم احتجاجا على سياسة الدولة المتوجهة الى ناحية أعجمية ناقمة •

---

(٤٠) نص على هذا ابو الفرج في أغانيه ، ٣٨٣/١٦ دار الكتب وكذلك الصولي في كتابه أخبار أبي تمام : ٥٩

(٤١) المؤلف ١٨ و ٧٩

وما هي فائدة أبي تمام ببقائه على ولاء طيء بعد فراقه رجالها الذين والاهم بدمشق كما يزعم الدكتور ؟ ثم في ادعائـــه هذا النسب بالحاح ونسيانه أهله الذين زعمهم الدكتور أشد النسيان ؟ بل في تجاوزه حـد اللياقة التي ينبغي أن يلزمها الغريب ؟ فيهجو قوما من صيابة العرب ، ويعلن هذا الهجاء باسمه طائيا ، وأكثر من هذا انهم لا ينكرون ذلك عليه ، بل هم يروون أقواله منسوبا اليه بلقبه (الطائي) ! ، وكان (معاصروه) هم الذين نقلوا شعره ، ولم يؤثر ان واحدا منهم قال له : ومن أنت أيهـــا الرجل ..؟ الا انها الطبيعة قد نطقت، وهل تخطيء الطبيعة فيما تقول ..؟!

وبعد ، فان التوسع في اثبات طائية أبي تمام لا يعترض سبيله مايسمى بالتكلف في البحث ، ولا مجال لاغفال الحجج باسم العلم ، والعلم الحق لا يعني بغير المنطق السليم في القول .

ثقافات أبي تمـام

يفهم مما ذكره الدكتور عمر فروخ عن ثقافة أبي تمام انها مستقاة من ثلاثة ينابيع في ثلاث مراحل :

الاول : الفلسفة ، وقد باشر تلقيها أيام طفولته .

الثاني : المعارف الدينية . وقد تفقه في معلوماتها ، ونظر في مذاهبها الاجتهادية ، واختـــار لنفسه منها مذهبه الطائفي ، وهو في مستهل فتوته وعنفوان شبابه .

الثالث : الفنون الأدبية . وقد بدأ بأوليـــاتها مع دراسته الدينية ، ولكن توجيهه العالي فيها ، واختصاصه بها كان في أيام نضجه العقلي حين رحل الى مصر ، وقد بلغ أعلا مراحل الشـباب ، وكاد يطل على وادي الـكهولة .

ولا ريب ان هذا النحو من التدرج العقلي والعلمي غريب جدا عن سنن التربيـــة ، ولا يتفق وما يقرره علماء النفس المستمدة أبحاثهم من التجارب في طبيعة النمو الجسمي والعقلي ، حتى ولو خرقت الطبيعة له عادتها •

ولا ينكر ان الطفل لا تؤهلـــه قابليته الساذجة للنظر في أبسط التأملات الفكرية الشاذة عن الاحساس ، ومن ضد الطباع أن تعهد الى الطفل أقيسة نظرية ، وقوانين لأحكام مفروضة ، واستنباطات لنتائج ظنية قبل أن يحسن توجيه ملكاته بتنظيم صلاتها بما يكتنفه من المشاهدات التي يحسها في محيطه ، وتنمو بها عواطفه وغرائزه وعقله ، ولو كان من الممكن أن يؤخذ بيد الطفل الى هذه الهوة البعيدة القرار فيجتازها بهذه السهولة ، لعددنا علماء التربية وعلماء النفس التجريبي على جانب خطير من المسؤولية في اضاعة الوقت على الأطفال بفرضهم نظام التدرج في تربيتهم وتعليمهم ، وغير خاف ان في تأخر خطوات التعليـــم تأخرا في خطوات العلم والفن وتأخرا في سير الحضارة التي يتأسس على تقدمها هذا الكيان البشري •

لو كان من الممكن أن تجمع مراحل التعليـــم في مرحلة واحدة ، لكانت اللغة أولى أن يتلقـــاها الطفل بدون تدرج ، ولاستطاع أن يتعلم الأسماء كلها ، وينبىء بها ، ويكلم الناس في المهد صبيا •

لو كان ذلك ممكنا لعاد خطابنا للأطفال والصبايا بعيدا عن الدعـابة والتلطف ، ولحق علينا أن ننزلهم منزلة أهل الكمال ، ولعددناهم ممن يستشار من أولي الرأي في الأمور التي يزعم العلم وأهلـــه ، وتدعي التجارب النفسية والفسلجية انهـــم قاصرون عن فهمها فضلا عن تمييز أصوبها ، ولكان في الامكان أن يغدو الطفل فيلسوفا ، وأديبا ، ومجتهدا •• بل مخترعا ، ومساهماً في تقدم الحضارة ، وسياسيا ، وقائدا ـ كل اولئك ـ وهو لا يزال يمتص ابهام يده ويناغي ألعوبته •

فأبو تمام الذي (يزعم التاريخ) انه نشأ في وسط عربي قريب من البداوة نجده (بتحقيق الظنون) قد نشأ في وسط اغريقي مليء بالجدل والنظر ، وانه كانت له مشاركة في ذلك •• ومن أين للعرب مثل هذه الموهبة الفذة والعبقرية الخارقة ، حتى يصبح لهم أبو تمام مثالا ما لم يكن يونانيا أو رومانيا ••؟ ففارق أهله ، وترك دينهم ، وانتمى الى غير أهل، وصبا الى غير دين ، فتطلع في فقه هذا الدين الجديد ، وتخرج بأدبه في أقل زمن وأقصر مدة بعمل جنسه الخارق ، ولذلك أصبح تعلمه الخاطف تعلما عميقا في سن لم تتجاوز مدى الرشد ••!!

كل ذلك ما ستجرى المناقشة حوله ، آملا أن أخرج بها من غمار هذه الظنون الى حدود التاريخ الصحيح •

١ ـ الثقافة العلمية الفلسفية

عد الدكتور أولى أدوار ثقافة الشاعر عهد اكتسابه للعلم والفلسفة ، وانه تلقى مباحثها عن أهله قبل أن تدرج به الأيام الى سن الرشد •

ونحن لو سلمنا بعدم شذوذ هذه النظرية عن قواعد التربية لا نسلم بعدم تناقض البحث الذي عرض الدكتور هذا الرأي فيه ، فقد صور لأسرة أبي تمام لوحتين متباينتين :

فهو في الصورة الاولى ، من الجاليات المتشردة عن موطنها ، وأنها سكنت سورية في زمن ما ، واستوطنت احدى قراها التي لا تساعد بيئتها على التوسع الاقتصادي والعلمي • وقد كانت في ضنك من العيش ، بحيث غادر ولي أمرها تلك القرية الى دمشق عسى أن يجد مهنة يحصل بها على قوت أهله وعياله ، فلم يجد سوى مهنة « كانت محصورة في » أمثاله من « غير العرب وغير المسلمين » ففتح حانوتا يبيع فيه الخمر ، غير أن هذه المهنة لم تنهض بمعاش تلك الاسرة بولي أمرها ،

فاضطر أن يرسل طفله الصغير « يشتغل عند حائك أو قزاز »[٤٢] ليستعين بمكسبه الضئيل على فقره المدقع •

هذه هي الصورة الاولى لهذه الاسرة •

وأما الصورة الثانية ، فهي تختلف تماما عن تلك الصورة البائسة ، فهي : « كسائر الجوالي اليونانية والفارسية والهندية سواء منها التيإعتنقت الاسلام •• أو التي بقيت على دين آبائها » كانت تعقد « المجتمعات وحلقات الأدب والعلم والجدل » ، وبذلك يكون أبو تمام قد شهد عنفوان هذه الحركة العلمية ، وعاش في ابانها ، وانه استساغ هذه الثقافة ، وتمكن من الاطلاع عليها لانها « كانت أقرب الى عقليته •••لصلة نسبهبالروم»[٤٣] •

وهنا ملاحظتان يجب الالتفات اليهما :

الملاحظة الاولى : ان الأسرة التي تقوم بمثل هذه الحركة العلمية ليست من الأسر المهملة العادية التي يضطرها عسرها الشديد على الاشتغال بأحقر المهن ، بل هي من أرفع الأسر الاجنبية منزلة ، وأعلاها طبقة ، ومن الغرابة أن تبقى على هذا التشرد البغيض ولها مثل هذا الكيان العلمي، دون أن تستخدم مواهبها كسائر الجوالي المثقفة في ذلك العصر الذي تقدم فيه كل ذي شأن من أي عنصر جاء وعلى أية نحلة كان •

الملاحظة الثانية : ان المؤلف ذكر ان أبا تمام « لم يتحرر من بيئته اليونانيـــة الا يوم أسلم »[٤٤] ، وانه أسلم في السن التي تقرب من سن الرشد[٤٥] ، وهذا يدل على أنه ترك أهله قبل أن يشهدوا نضجه العقلي ، ويفيدوا من شبابه الفتي ، وسنه الرشيدة ، وانه كان فيهم أيام كان طفلا غير رشيد فلم يكن متهيئا بعد لتلقي تلك الثقافة التي ذكر الدكتور « انه

---

(٤٢) المؤلف ١١
(٤٣) المؤلف ٢٩ ــ ٣٠
(٤٤) المؤلف ٣٠
(٤٥) المؤلف ١١

شهد عنفوانها وعاش في ابانها »[٤٦] •

ومعلوم ان صلة نسبه بالروم ليست علة مؤثرة ، فتجعل هذه الحركة الجدلية أقرب الى عقليته ، لأنها لم تلد معه ، وليست الصلة الرومية أو اليونانية بسبب لتكوين المواهب والعبقريات،وما أصدق أمير الشعراء فيقوله:

العبقرية من ضنائنه التي   يحبو بها ـ سبحانه ـ من شاء

لقد عادت اليونان من صغرى الدويلات الاوربية التي ليس لها أي شأن خطير في سياسة أو في علم أو في أدب ، ولكنها تبع لغيرها في كل ذلك منذ أن ذهب كيانها السياسي فاندمجت في الكيان البشري العام ، فلم لم ينفعها دمها أن تكون لها الصلة القديمة باليونانية الاولى ؟ وهي نفس الصلة التي امتازوا بها على البشر كما يدعي السائرون وراء المبشرين اليوم باسم العلم المزعوم لهم • ولماذا بقي تأثير هذه الصلة في أبي تمام ولم يبق في الشعب اليوناني المتخلف عن ركب الدول الكبرى ••؟ وهل له أثر في هذه النهضة الحديثة • ولعمري ان دعواهم هذه ان هي الا احدى محارباتهم للامة العربية ، وللدين الاسلامي قام بها رجال التبشير الممهدون للاستعمار ورددتها أبواقهم في هذه الربوع المنكودة الحظ بهم وبأمثالهم •

ومهما تكن القابليات والمواهب من القوة الخارقة ، فلابد لها من نضج عقلي ، وسن رشيدة ، ودراسة عميقة ، يتهيأ لها صاحبها بمقدمات أولية توجيهية تستمر معه الى ما بعد زمن رشده ليكون مطلعا على العلم والجدل ، ولا فرق في ذلك بين أن تكون صلة نسبه بالروم أو باليونان أو ••• بالزنج •

واذا كان هنالك استعداد خارق فلا يبين أثره الا بعد الرشد والنضج العقلي ، فالطفولة عهد الفطرة الساذجة ، وان كان الذكاء يكمن وراءها ،

---

(٤٦) المؤلف ٢٩

ولكن لا تبدو منه غير اللمحات التي هي النجابة في البنين تلتمع مخايلها أثناء الحركات والاشارات .

٢ ـ الثقافة الدينية

وهذا ثاني الأدوار التي عدها المؤلف من المراحل الثلاث في ثقافة أبي تمام ،فقد ذكر : أن حبيبا رأى قوما يحنون عليه أيام كان يشتغل في دمشق عند الحائك أو القزاز[٤٧] ، وقد كان لأولئك القوم يد في انتقاله من مسيحيته الى الاسلام ، وحدد زمن هذا الانتقال بأنه « يقرب من سن الرشد » . وأن مواهبه قد بدأت بالظهور .

وقد وضع الدكتور هذه العبارات بصيغة الاخبار ليشعر بأن للتاريخ قولا فيها ، وليصرف الظن الى أنه منقول من مصادر سابقة العهد ليجعل التبعة على المؤرخين في اغفال اولئك القوم الذين وجدهم يحنون عليه ، مع ان تعيينهم هنا لازم في تقرير الأثر الذي تركوه في نفسه حتى اختار الاسلام دينا ، ولا ريب في أن الاتجاهات الدينية أهم الأسس التي تستند عليها الدراسة التي توصل الى شكل التربية في سير الرجال .

ولكنه بنفس تلك الصيغة في الايهام أخذ يكثر من ذكر قوم آخرين كانت الاشارة اليهم في تاريخ الشاعر وأدبه اشارة عابرة ، وكان اتصاله بهم قليلا بعد فراقه دمشق وانتقاله الى حمص كأحمد بن عبدالكريم الطائي وديك الجن شاعر حمص[٤٨] .

ثم يزيد على هذا أن لديك الجن أثرا في تقوية منازع أبي تمام الدينية ، وتوجيهه الى المذهب العلوي ، حتى جعله أشد حماسة لهذا المذهب وأقوى تعصبا[٤٩] . وعد ذلك سببا في حرمانه من رعاية المأمون

---

(٤٧) المؤلف ١١
(٤٨) المؤلف ١٢
(٤٩) المؤلف ١٢

العباسي[٥٠] ، وليست لنا ملاحظة على مذهب أبي تمام فان في شعره مايشير الى علويته ، الا أننا نراها علوية فاترة لا أثر فيها للحماسة ، ثم ان قصيدة واحدة لا تكفي أن تجعله أشد تعصبا لمذهبه العلوي ، ومع هذا فان للشاعر صلة قوية بصداقة شاعر اسمه علي بن الجهم ، وهو « مشهور ببغضه للعلويين»[٥١] ، فلو كان متحمسا للمذهب العلوي شديد التعصب فيه لما أباح لنفسه (الورعة) أن ينزل صحبة هذا الرجل منزلة القربى أو ما يفضلها فيقول له :

ان يكد مطرف الاخاء ، فاننا ... نغدو ونسري في اخاء تالد

أو يختلف ماء الوصال ، فماؤنا ... عذب تحدر من غمام واحد

أو يفترق نسب ، يؤلف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد

وفي الحقيقة ان اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية ، والمسلم أخو المسلم ، وان اختلفا في بعض الامور ولم تبعد شقة الخلاف بين الطوائف الاسلامية الا بعد أن عبثت بهم بعض العناصر التي تتصيد في الماء العكر ، أو تدخلت عصبية رعناء ، ممن بعدوا عن الرقة والتسامح ، ولم يتفقهوا في دينهم تفقها صحيحا ، فتنازعوا في الفروع ، وأغفلوا الأصول وبينما كان الخلاف علميا ، فاذا بالتعصب الأهوج جعله من جوهر الدين •

وقد عد الدكتور أبا تمام في ذكره اسلامه من هؤلاء المتعصبين ، حتى ذكر انه كان يتحمس فيما يظنه التقوى[٥٢] ، وبذلك أبعده عن العلم بدينه الذي لم يعتنقه حتى اقتنع به ، فجعله في مكان سحيق عن التسامح ، مع ان تسامحه يظهر جليا في صحبته لعلي بن الجهم •

وانه لمن الاشارات التي ترمز الى عربيته الصحيحة ، وانه مسلم تحدر اليه العلم بالدين تربية اصيلة ، ولم يتلقه بصورة تلقينية على مايزعم

---

(٥٠) المؤلف ١٧

(٥١) تاريخ ابن الوردي ٢٢٥/١

(٥٢) المؤلف ٢٤

المؤلف ومن ذهب مذهبه • وبذلك فهم شاعرنا حقيقته التي لا سبيل اليها للآراء المختلفة أن تفسد فيه المودة ، و (انما المؤمنون اخوة) وان اختلفت وجهات نظرهم •

واما ما ذكره المؤلف من أن المأمون حرم أبا تمام لمذهبه العلوي ،فهذا تعليل لا يتأيد بخبر من تاريخ الشاعر ، فقد اتصل بعد المأمون بالمعتصم حتى دعي بشاعر المعتصم كما لقبه المؤلف في عنوان رسالته ، ولم يكن المعتصم مخالفا لسياسة المأمون في منابذة العلويين ، بل كان المأمون أكثر تساهلا معهم خلافا لأسلافه ولمن جاء بعده ، حتى أنه أعطى ولاية عهده للامام علي الرضا ، ولو لم تقم عليه ثورة أهل بيته لخرجت الخلافة الى العلويين •

وأما حرمان الشاعر فيذكر التاريخ سببه بأن أبا تمام صادفه بعد عودته من مصر سنة ٢١٤ للهجرة اذ كان المأمون في سورية متهيأ لغزو الروم ، فوفد عليه وهو في المصيصة[٥٣] ، وكان في زي اعرابي[٥٤] فانشده قصيدته التي جاء في أولها :

دمن ألم بها فقال : سلام	كم حل عقدة صبره الالمام
ولقد أراك فهل أراك بغبطة	والعيش غض والزمان غلام
أعوام وصل كان ينسي طولها	ذكر النوى ، فكأنها أيام
ثم انبرت ايام هجر أردفت	نجوى أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها	فكأنها وكأنهم أحلام

فجعل المأمون يعجب من غريب ما يأتي به من المعاني ، وأن يكون لاعرابي مثل هذا التوليد الذي لا يعهده في شعر الأعراب ، فلما انتهى الى قوله :

---

(٥٣) اخبار ابي تمام ١٤٤ والمصيصة احدى قرى دمشق
(٥٤) ديوان المعاني ١٢٠/٢

أتحدرت عبرات عينك ان دعت ورقاء حين تضعضع الأظلام
لا تشجين لها فان بكاءها ضحك وان بكاءك استغرام
هن الحمام ، فان كسرت عيافة من حائهن فانهن حمام

قال له المأمون : الله أكبر انك ـ ياهذا ـ قد خلطت الأمر علي منذ اليوم ، وقد ظننتك بدويا ، ولكن معانيك معاني الحضريين ، فاذا أنت منهم ...؟!

قالوا : وبهذا قصر أدب أبي تمام فحرمه المأمون ، وهذا يدل على أن المأمون لم يلاحظ على ابى تمام غير الناحية الادبية في حرمانه ، فانه حسب الشاعر قد تعمد ان يخلط الأمر عليه بهذا الزي ، فاستحق الحرمان لأنه لم يراع اللياقة التي يوجبها أدب التشرف بمقابلة الملوك ، وقد عد نقاد السلوك الأدبي هذه الحادثة وما اليها من أمثلة ما يجب على جلساء الملوك والوافدين اليهم أن يراعوه ، ولو كانت العلة في حرمان الشاعر مذهبه العلوي لكان الأولى ان يحجب عنه لا أن يمثل بين يديه وينشده شعره .

ولم يكن ذكر الشاعر قد بلغ في أيام المأمون حدود النباهة حتى يعرف الخليفة على أي مذهب هو . فقد قدم من مصر محتقبا الخيبة كما يدل على ذلك شعره ، ووصل سورية ، فصادف تجوال المأمون عازما على غزو بلاد الروم . وهي الغزوة التي توفي فيها . ودفن في طرسوس ، وكان الشاعر عائدا من مصر ، فوفد مع من وفد على المأمون ، وانشده تلك القصيدة ، ولما ولي المعتصم الخلافة بعد أخيه المأمون ، قدم الشاعر الى بغداد ، وبواسطة القاضي احمد بن ابي دواد الايادي أنشده قوله فيه :

فحواك عين على نجواك يا مذل حتام لا يتقضى قولك الخطل
وان أسمج من تشكو اليه هوى من كان أحسن شيء عنده العذل
ما أقبلت أوجه اللذات سافرة مذ أدبرت باللوى أيامنا الأول
ان شئت ألا ترى صبرا لمصطبر فانظر على أي حال أصبح الطلل

وفي هذه القصيدة البيت الذي اهتز له الشعراء اعجابا به ، وهو

تغاير الشعر فيه اذ سهرت لـــه حتـــى ظننت قوافيـــه ستقتتل

وهذا أول ما بدأت به نباهة الشاعر ، ولم يكن قد عرف في بـلاط الخلفاء أدبه فكيف عرف مذهبه قالوا : ولما ذكر القاضي احمد أبا تمـام للمعتصم حين توسط عنده ان يسمع شعره تذكر انه هو الذي انشد للمأمون فقال له : أهو الأجش الصوت ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان له غلامـا ينشد عنه[٥٥] • فامر به فدخل وانشده هذه القصيدة وهذه من الاشارات الدالة على وصفه •

وأما ما ذكره الدكتور فروخ عن الشاعر ديك الجن هو السبب في تقوية منازع ابى تمام الدينية ، وتوجيهه الى المذهب العلوي ، فهـــو رأي عريب ، اذ الأشبه بديك الجن ان يكون داعية للشعوبية مبدأ المـوالي ، وقد كانت رأيا ساريا في أدبهم ، وليست لها من علاقـة بالدين الا مـا خـرج به المجون الى ما تتورع عنـه القلوب المؤمنـة من كل ما تلعب فيـه الزندقة أدوارها •

فالاديب يحمل في رسالته رأيه الذي ارتضاه • فان كان شعوبيا كانت دعوته الى الشعوبية أسرع لاسيما اذا كان تلميذه من الموالي الذين هم أولى بهذا الرأي ، فلو صح ان الشاعر المولى (أبا تمام) أخذ عن الشاعر المولى (ديك الجن) فانما يأخذ عنه مذهب الموالى • وهو عدم الاعتراف بفضل العرب على الاقل بله الزندقـة والفتـــور الـــديني ، فـان الاســـلام له من العرب أو من الموالي رجال وقفوا لتأييده ومناجزة كـل مـــذهب ينابذه من أمثال الزمخشري والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم ممـن ظهرت آراؤهم في قول من قال :

---

(٥٥) اخبار ابى تمام ١٤٤

ومما زادني شرفا وتيها وكدت باخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك : (يا عبادي) وأن صيرت أحمد لي نبيا

فغايتهم العظمى أن يشملهم قول الله تعالى : (ياعبادي) وأن يكونوا من اتباع (محمد) صلى الله عليه وسلم ، وهذا سيبويه لم يخدم لغته بقدر ما خدم لغة القرآن ، وهو احد العلماء من الفرس •

ومن الغريب أن نرى شاعرا ماجنا خليعا كديك الجن يقوم بمهمة معلم ديني ، وليس أضعف ايمانا ممن يكتسب عقيدته من مثل هذا الرجل السادر ، ولا عقيدة أهون على القلب من عقيدة يتلقاها المرء بين الحانات وحول كأس الحميا ، وأين أثر الروح في تربية يتخللها الانهماك على الغلمان ، والانقطاع الى القصف والعزف ؟ وانى لأبي تمام أن يقوى ايمانه وتسمو عقيدته ، وتشتد حماسته الدينية اذا كان توجيهه بفضل شاعر خليع أقرب مجونه الى الوقار قوله :

بها غير معذول فداو خمارها وصل بعشيات الغبوق ابتكارها
وقم أنت واشرب كأسها غير صاغر ولا تسق الا خمرها وعقارها
موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فادارها
فقام تكاد الكأس تحرق كفه من الشمس أم من وجنتيه استعارها
فظلنا بأيدينا نتعتع روحها وتأخذ من أقدامنا الراح ثارها
فنل من عظيم الوزر كل عظيمة اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

غير ان الدكتور يرينا اتجاها خاصا في نزعة أبي تمام الدينية ، وتحليل عواملها ، والتماس مظانها بجانب ما يبرره من فسقه وفجوره ، وانغماسه في شتى الملاذ ، وانواع التهتك ، ولكنه بالرغم من الروغان والمغالطات في محاولة الخروج الى رأي مقبول لم يوفق الى رأي يقبله الشرع ويطمئن اليه المنطق ، فقد يتمشى باضطراب مجهد ليلائم بين أقوال غير متناسبة ولا متسلسلة •

فبيناه يرى أن ابا تمام « وطيد الايمان متينه »[٥٦] قوي فيه « الى حد الافراط »[٥٧] ، اذا به يقرر بجانب ذلك كيف يتقلب في شتى الملاذ وأنواع الفسق والفجور ، ويندفع « وراء اشباع عواطفه »[٥٨] وشهواته « الى حد التفريط »[٥٩] .

ثم يقف بين هذين الرأيين المتناقضين في غير انكار على المؤمن أن يأخذ حظه من اشباع غريزته الجنسية اذا تكتم في ذلك متناسيا حكم القرآن فيما يكون نفاقا ورياء ، ولم يستذكر قوله تعالى : (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم) .. وكأن علة التحريم لا تعدو المجاهرة بارتكاب المحرمات .

وجد الدكتور فروخ ان أبا تمام مسلم ، وقرأ أن أباه كان نصرانيا ، ووثق بتأييد الدكتور طه حسين لهذا الخبر الذي اذاعه المبشر المعروف (مرغليوث) لغاية في نفسه على عادته في ذم العرب والاسلام ، فزعم بدوره ان الشاعر انتقل من تلك النصرانية الى هذا الاسلام ، وادعى انه وجد قوما يحنون عليه ، وانهم أفهموه الدين « فاقتنع بالاسلام فاعتنقه » ، وانه « أصبح شديد الحماسة في الدفاع عن دينه ، وأشد حماسة في مهاجمة اعدائه » واستدل على ان اسلامه كان وطيدا بتلك « القصائد التي مدح بها الخلفاء ، ووصف فيها بعض الوقائع الاسلامية »[٦٠] ، ولم يرد ان يرى ان لابد للشاعر من ذكر حوادث عصره والتغني بمآثر المخلصين من أبناء أمته ، والخالدين من سلفها الصالح .

وليس فقدان التمجد بالبطولات ، أو قلته في شعر المعاصرين لابي تمام الا لتلاشي شعر غيره دون شعره بتأثير شخصيته الادبية ، وقد ذكر

---

(٥٦) المؤلف ١١
(٥٧) المؤلف ٢٤
(٥٨) المؤلف ٣٠
(٥٩) المؤلف ٢٤
(٦٠) المؤلف ٣٠-٣١

ابن رشيق[٦١]: « ان البحتري وأبا تمام أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد » ، وهذا عدد كبير لا يستهان به ، لولا أنه صادر عن ناقد يزن الكلام ويتحرى أقربه الى الواقع ويعنى ما يقول •

ولا يبعد ان يكون قد قيل في وصف تلك الحوادث شعر كثير ، فحال دون وصول أغلبه الينا ما لحق قائليه من ذلك الخمول ، وفي تاريخ الأدب السياسي كثير من الشعر في نفس الحوادث التي ذكرها أبو تمام وليس من المعقول أن ينفرد هذا الشاعر وحده بذكر حوادث عصره ، فقد مدح البحتري قواد حرب الخرمية • وكذلك محمد بن وهيب الحميري الذي سبق أبا تمام على الجائزة الاولى في مدح الأفشين خيذر بن كاوس بمناسبة انتصاره على الخرمية وقضائه على حركتها تماما[٦٢] • ولكن لم يرد من شعره غير بضعة أبيات يروونها للمقارنة العابرة بينه وبين ابي تمام ، والتدليل على تدخل الأغراض في ايثار ابن وهيب الحميري عليه بالجائزة الاولى ، فهل كان البحتري وابن وهيب دخلا في الاسلام حديثا فتحمسا لهذا الدين بما ذكراه من الوقائع الاسلامية الجارية في عصرهما ••؟ ، وهذا أبو الطيب المتنبي كان يسجل وقائع عصره مما كان فيه فوز للاسلام ، فهل يدل ذلك على حماسة دينية جاءته بعد انتقاله بعقيدته الى الاسلام ••؟ ، أم هو من المعاني التي يظفر منها الشاعر البارع ببيان نبيل فيصوغ منها حلى الروعة والخلود ••؟ ، واذا صح خبر ادعاء أبي الطيب للنبوة ـ ولا اراه صحيحا ـ فليس بعد ذلك ما يشير الى حسن عقيدته •

وقد بالغ الدكتور فروخ في وصفه ورع أبي تمام ومبلغ اخلاصه لدينه ، فذكر : أنه « أشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وأبعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكون أحيانا مفرطا فيما يظنه التقوى »[٦٣] ،

---

(٦١) العمدة ١/٦٤

(٦٢) هبة الايام ٢٨٤

(٦٣) المؤلف ٢٤

ويعلل ذلك بأنه « رغب في الاسلام تاركا بلاده وأهله فكان حريا باجتناب كل ما يحمل منه على غير الاخلاص »[٦٤] ، وأسس هذا التعليل على أن « الداخل في دين يكون أشد تمسكا بفروضه ونوافله من أصحاب الدين أنفسهم »[٦٥] .

وهذا لا يصدق الا باغفال الاحكام الاسلامية ، وتشريعها السمح الأغر ، اذ ليس الافراط فيما يظن بالتقوى مما يقره الشرع و (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) ، وقد قال سبحانه : (وما انا من المتكلفين) وفي الحديث الشريف : (جئت بالحنيفة السمحة ليلها كنهارها) ، وفيه (من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهورد) .

اما من يدخل حديثا في الدين فلابد أن يكون اشد رغبة في تفقه شرائعه الأولية من أن يكون اشد محافظة على الافراط فيما يظنه التقوى ، وان احتياطه على فرائضه ونوافله يحمله على تحري الصحة في القيام بها فلا يدع للجهل بفقهها سبيلا للغلو .

وليس الغلو الا ما جرى عليه من أسلم في العصور المتأخرة ممن غلب المسلمون على بلادهم من تتر ومغول ثم هدوا الى اعتناق الاسلام ، ولكنهم لم يجدوا في العلماء من يتهيأ لتفهيمهم حقيقة الاسلام ، فدخلت البدع في أعمالهم ، وأما أبو تمام فقد ازدحم عصره بكبار العلماء ، وذكر المؤلف انه قضى حينا من الدهر في المساجد بين العلماء والمتعلمين ، فالاحرى ان لايغيب عنه هذا العلم العملي ، وليس هنالك من مظان لحقيقة التقوى تلتمس من غير الادلة الشرعية ، وليست النوافل متخيلة بعد أن حصرها العلم فيما ورد بالطرق الصحيحة لانها موقوفة على قول النبي صلى الله عليه وسلم أو عمله او اقراره و (ما اتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) .
فالعبادة ان لم تكن مأثورة كانت بمثابة ما نهي عنه ، على قاعدة أصولية ،

---

(٦٤) المؤلف ٢٣
(٦٥) المؤلف ٢٣

وهي (ان الأصل في العبادات الحرمة الا ما نص على تحليله ، وان الأصل في المعاملات الحل الا ما نص على تحريمه) ، ويؤيد ذلك ما في الآيـــة الكريمة : (ولا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق) •

فان كان أبو تمام أشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل لزم عليه أن يكون أشد رغبة في تحرى سبل الشرع اليها ، ولا بد أن يكون لاعتكافه في المساجد وهو بين العلماء أثر في افهامه بان الافراط في مظان التقوى غير سبيل المتقين •

أما أنه أشد تمسكا بدينه من أصحاب الدين أنفسهم فقد امتنع هذا التفضيل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ، ثم ان هنالك رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وان فيهم العلماء بأيهم اقتدينا اهتدينا ، فهل كان ابو تمام من أولئك أو من هؤلاء ؟ بله كونه أشد منهم تمسكا بالدين ، وأفضلهم فيه تقوى ••؟

ان في المسلمين من اذا جن عليهم الليل (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا) ، أو يجلسون للنظر في استنباط الاحـــكام الشرعية ، لما فيه تشريع للناس ، وصلاح المجتمع الاسلامي في عبـاداتهم ومعاملاتهم وأحوالهم الشخصية ، أو يرابطون في ثغور البلاد كالليـوث مانعين حوزتها من عدوان المعتدين •• فهل كان أبو تمام كأولئـك ••؟ بله كونه أشد منهم تمسكا بدينه ••!

لا ، بل كانت لياليه كما يصفها الدكتور حمراء لما فيها من القصــف والعزف وشرب الخمر والاسراف فيه وفي التمتع بالجواري والغلمان ••!

وان في المسلمين من يتعففون عن صلات الخلفاء ، ويردونها عـــلى شدة حاجتهم اليها •• فهل كان ابو تمام كذلك ••؟

لا ، بل كان هو نفسه يستعطف الخلفاء والامراء ، ويفتري عليهـم

الفضائل ،ويقول : يا بدر انت اللجين ،ويا شمس انت الذهب،وقد كان يستدر الهبات ويحتلب ضرع الجود من الراحات بنحو قوله :

له كرم لو كان في المـــاء لـم يغض وفي البرق ما شام امرؤ برق خلـب
أخو أزمات بذله بـذل محســـن الينـــا ولكن عذره عذر مذنـــب
اذا أمه العافون الفوا حياضـــه ملاء ، وألفوا روضــه غير مجدب
اذا قال : أهلا ، مرحبا ، نبعت لهـم مياه الندى ، من تحت أهل ومرحب
يهولك أن تلقـــاه صـدرا لمحفـــل ونحرا لاعداء ، وقلبـــا لموكب،

وقوله :

بنان موسى اذا اســـتهلت للناس نابت عن الغيـــوث
حيث الندى والسدى جميعـا وملجـأ الخائف الكـــريث
حيث لبون النـــوال تهمـــي غـــير شـطور ولا ثلـــوث

وان في المسلمين من كانوا يقولون : اذا وقف العلماء على أبـواب الامراء فبئس العلماء ، وبئس الامراء ، واذا وقف الامراء على أبـــواب العلماء فنعم العلماء ، ونعم الامراء ، فهل كان أبو تمام يرى هذا الرأي ؟ أو كان من اهله ..؟

لا ، ليس هذا برأي ابي تمام ، ولم يكن من أهله ، بل كان كثيرا ما يشد الرحال ويقطع المسافات البعيدة الى الامراء ليقف على أبوابهم أياما وليالى مترقبا أن ترفع الحجب دونه ، وينشد نحو قوله :

لا تنس تسعة أشهر أنضيتهـــا دأباً ، وأنضتني اليك ، ونيفـــا
بقصائد لم يزر بحرك وردهـــا ولو الصفا وردت لفجرت الصفـا
لله أي وســـــيلة في اول أقوى ولـكن آخرا ما أضعفـــا
انى اخاف وارتجى عقبـــاك ان تدعى المطول وان اسمى الملحفـا

ويقول أيضا :

الفطر والاضحى قد انسلخا ولي أمل ببـابك صـائم لم يفطـــر
حول ولم ينتج نداك وانمــــا تتوقع الحبـلى لتســعة أشـــهر
جد لى ببحر واحد اغرقـــك في مدح أجيش لهـــا بسبعة أبحـر
قصر بذلك عمر مطلك تحولي حمدا يعمر عمر سبعة أنســـر

فما هو ذلك الامتياز الذى سبق به المسلمين فأصبح اشد منهم تمسكا بدينه ؟ ولماذا لم تدعه تقواه الى الصدق في اللهجة ، او تجرد روحه من تلك القيود المادية فيجيد في شعره الذي نظمه في الزهد ، أو يجدد فيـه، كما اجاد في سائر أغراضه البيانية الاخرى وجدد فيها ..؟ وهل يكفـي ما نظمه في بعض الحوادث التي يتطرق اليها الشعراء عادة فيكون دليلا على صحة تقواه ..؟ وما مبلغ تقوى لاتمنع صاحبها من اطلاق عواطفه فيما حوله..؟

غير ان الدكتور وجد ما لايمكن انكاره من انطلاق الشاعر ، فاضطر بعد أن أثبت له الصفات السامية ان يقول : « واما اخلاقه فكانت اخـلاق شاعر عباسى »[٦٦] اى انه كان خليعا ماجنا ، وكأنه شعر بضعف هـــذا التأليف وتناقضه فاستدرك بما ظنه مخففا شيئا من هذا التناقض ، أو مبررا للفجور في جانب التقوى ، فقال : « ولكنه لم يكن متهتكا بل كان يأتـي ملذاته في ستر »[٦٧] ، فجعل التهتك في ارتكاب المحرمات هو العلة في تحريمها ، والتستر هو الذي يزيل تلك العلة فيحل ما حرم الله .

ولاريب ان من اقتنع بالاسلام فاعتنقه لا حبا باجتذاب الدنيا اليه[٦٨] لابد أن ينصرف بكليته عن ملاذ الدنيا وشهواتها ولا يبالى آلامها ،فيتجرد من سفاسف المادة ، ويتنسم اريج الروح السامي ، ويبدو بنفس غير عابثة بلهو ولا جامحة في مجون .

---

(٦٦) المؤلف ٢٠
(٦٧) المؤلف ٢٠
(٦٨) المؤلف ١١

ولو صح أنه أسلم رغبة في الاسلام لامتنع عن كل ما هو محظور شرعا ، فان بقاءه على الاستهتار لايدل على حسن اسلامه واخلاصه للدين بل يدل على اتخاذه الدين احبولة لاجتذاب الدنيا اليه و (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى) •

وغريب أن يكون الشديد في التقوى والورع لا يبالي ان يعكف على الجواري والغلمان ، وانَ « تتغلب عواطفه على مبادئه أحيانا فيسرف في شرب الخمر ، وانفاق المال ، وفي اتباع اهواء النفس حتى يسف الى ما انحط اليه أبو نواس »(٦٩) •

غريب ان يكون المفرط في تقواه مفرطا في معاصيه ، فيخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، ويسرف في كل شيء حتى فيما يجعله من اخوان الشياطين ، ولا بأس ان يكون كذلك مادام متسترا بحجاب من الرياء والنفاق : وما هو حسن اسلام المرء وهو لايعبد الله كأنه يراه ••؟ ، وقد قال العلماء في التقوى : انها ترك جميع الذنوب والمعاصي ، وفعل مايستطاع من الطاعات ، واتقاء كل ما يحول بين المرء والمقاصد الشريفة ، والغايات الحسنة ، والكمال الممكن •

ذكر الدكتور : انه « يكفي أن يكون الانسان متهتكا في قوله دون عمله حتى يرمى بالزندقة »(٧٠) ، ثم ذكر ان أبا تمام اتهم بالزندقة وهذا يدل على تهتكه عكس ما ذكر من تستره في معاصيه • غير أننا لو تتبعنا شعر ابي تمام • وتأملنا الظروف التي هيأت أغراضه ، ونفذنا من خلاله الى حياته الخاصة ، لوجدناه في تبذله لا حذرا ولا متسترا ، ولكنه مع ذلك غير مفرط في اطلاق عواطفه افراط ابي نواس واضرابه ، بل كان ميالا الى الاعتدال في اخذ حظه منها ، ومنتظرا لها الفرص الملائمة ، وهذا ما جعل شعره خاليا من ذلك المجون الذى زخرت به دواوين المتهتكين

---

(٦٩) المؤلف ٢٤ـ٢٥

(٧٠) المؤلف ٣٠

من الشعراء وحفلت به اخبارهم ، ولكنه اذا سنحت له الفرصة الملائمة خلع لها العذار ، وجرى في ملذاته على اوسع مدى ، فينهضونه محمولا على الايدي ، ولا يمنعه انه سيندم اذا عنفه مزاجه المعتدل اذا زالت سورتها عنه، او لامه على اندفاعه هذا في خلع عذاره ، فينحو باللائمة على ندمائه بنحو قوله :

أفيكم فتى حر فيخبرني عني ... بما شربت مشروبة الراح من ذهني
غدت وهي أولى من قواي بعزمتي ... ورحت بما في الدن أولى من الدن

واغراؤه بمجالس اللهو لا يشتد الا في الليالي التي يصفها بنحو قوله :

ومعرس للغيث يخفق فوقه ... رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفا ... لطرائف الانواء والانداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى ... وانحل فيه خيط كل سماء
غنى الربيع بروضه فكأنما ... اهدى اليه الوشي من صنعاء
صبحته بمدامة صبحتها ... بسلافة الخلطاء والندماء
بمدامة تغدو المنى لكؤوسها ... خولا على السراء والضراء
راح اذا ما الراح كن مطيها ... كانت مطايا الشوق في الاحشاء
عنبية ذهبية سبكت لها ... ذهب المعاني صاغة الشعراء
صعبت وراض المزج سيء خلقها ... فتعلمت من حسن خلق الماء
خرقاء يلعب بالعقول حبابها ... كتلاعب الافعال بالاسماء

ومما يشير الى اعتدال مزاج الشاعر في تعاطيه حمياه الخرقاء انه يكثر من ذكرها ممزوجة يروض المزج خلقها السيء ، ولم يكن من أشباه المفرطين الذين لايريدونها الا صرفا لم تتعلم ولم تتهذب بحسن خلق الماء، كما قال حسان بن ثابت في عصر جاهليته :

ان التى ناولتني فرددتها ... قتلت ـ قتلت ـ فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة ارخاهما للمفصل

فهذا الشاعر كان يفضل الصرف من الشراب فرد الى ساقيه كأسه لانه مزجها بالماء ، وخاطبه باشد الالفاظ الساخطة وجعله كأنه قتل الخمرة لانه كسر حدتها ، ثم تمنى للساقي ان يقتل كما قتل هذه الكأس بالماء .

اما ابو تمام فقد وصف الخمرة باقرب الالفاظ المهذبة الى مزاجه المعتدل ، فجعل هذه الخرقاء اللاعب حبابها بالعقول يحتاج الصرف منها الى ادب يروض خلقها السيء ، فالماء بما في طبعه من لطف ومن رقة هو الذي يقوم بتهذيبها فيعودها على أخلاقه المهذبة ، وتتعلم منه حسن الاخلاق .

فهذان التفكيران قام كل منهما بمزاج خاص لكل من الرجلين : احدهما ينكر المزج فيصفه بانكر الصفات ، وثانيهما يريد المزج فيصفه بألطف الصفات .

وهنا خيال ظريف اتوقعه من هؤلاء الذين لم يتعمق بهم التفكير الى نقطة التركيز العلمي الصحيح ، فبقوا على سطحيتهم المترامية اطرافها البعيدة عن التركيز ، فكأنى بتلاميذ هذه المدرسة المقلدين في تفكيرهم للدكتور طه حسين يردون اختلاف هذين الشاعرين في الرأي الى اختلاف البيئة والعصر ، فزمن ابى تمام زمن حضارة ، وبيئته متقدمة في التفكير فعبر بما يناسب زمنه وبيئته من لفظ تلتمس منه التربية والتعليم ، اما حسان فزمنه زمن بداوة وتأخر وبيئته بيئة جاهلية لذلك كان تعبيره بما يلائم عصره القاسي الشديد من لفظ يحمل معنى القتل وسفك الدماء .

وليس الامر كذلك ، اذ التعليم وتهذيب الاخلاق مما يتمدح به كل جيل وتشعر به كل أمة في أي عصر من العصور ، كما ان القتل وسفك الدماء قد يجرى في كل جيل ويفهمه اهل كل عصر ، وعلى هذا فان التعبير بين هذين الشاعرين اقتضته المناسبة للنفسية التي هي طبيعة بين الاسراف والاعتدال .

وانني اذ اتخيل لتلاميذ هذه المدرسة السطحيين هذا النحو من التعليل

بما وجدت مفكرهم الدكتور طه حسين علل بمثل هذا التعليل متهكما على الآمدي[٧١] ، في نقده بيت ابي تمام[٧٢] القائل فيه :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلقه بكفيك ما ماريت في انه بـــرد

فقد عاب الآمدي على ابي تمام ان يشبه الحلم بالبرود الناعمة الملمس، وذكر انه خرج عن المألوف من سنة العرب في تشبيه الحلم بالجبل ، فذكر طه حسين ان عصر أبي تمام عصر ترف ولين ، وقد عاش بين قصورالامراء والخلفاء والاعيان يرفل في شتى البرود الحريرية الناعمة ، فلا يخطر له ما يخطر للاعراب الذين يعيشون في البوادي بين الجبال والاودية والرمال، وجعل البيئة هي المؤثرة في اختلاف التشبيهين •

وليس الامر كما علل الدكتور طه حسين ، فان أبا تمام شبه الحـلم في قصيدة اخرى بالجبل على ماكان مألوفا في أدب العرب ، فقال :

لك هضبة الحلم التى لو وازنت (أجأ) اذن ثقلت وكان خفيفـــا

وأجأ هذه هي احدى جبلي طيء المعروفين باسم (أجأ وسلمى) • فلماذا لم يخطر له ما يلائم بيئته الحضرية بهذا التشبيه ••؟ ، ولكن الشاعر اذا كان جوال الفكر واسع الخيال ، لايحد مجاله بسنة او مألوف ، فهو ان اراد الرقة شبه بالحرير أو نحوه ، وان أراد ثقل العقل شبه بالجبال أو نحوها ، والشعر العربي منطلق عن حدود ما اصطلح عليه مدونو البلاغة، وانما وضعت قواعدها لتكون أمثلة لتوضيح الادب الجمالي لا لتكون سنة ثابتة ، ولكن الغاية تحرى الجمال في الالفاظ والمعاني ، ولم تمنع البيئـــة البدوية ان يبدع الاعرابي في وصف السحاب المتراكم ، فيقول :

دان مسف فويق الارض هيد به يكاد يدفعـــه من قام بالراح

---

(٧١) من حديث الشعر والنثر ١٧٣

(٧٢) الموازنة ١/١٣٩ تحقيق احمد صقر ١٩٦٠

فهل خولفت الاعرابية في هذا التصوير الذى يعد جديدا في كل عصر ..؟

واخالف المؤلف كذلك في ادعائه ان ابا تمام اتهم بالزندقة[٧٣] ، بعد ان ذكر انه « وطيد الايمان متينه »[٧٤] ذلك لانه ـ كما ذكر ـ « اقتنع بالاسلام فاعتنقه » . ومن كان قويا في دينه هذه القوة ، كيف تكون منزلته الشعبية والرسمية ؟ وكيف يتأتى لاحد ان يرميه بهذه الزندقة التى ما اتهم بها الا من وجدوا ضعفا في عقيدته او قولا لا يبرره دين ولا تقوى .

وليس احد من مترجمي الشاعر قد ذكر هذا أو أشار اليه مع كثرة أعدائه المعاصرين ، والمتحاملين عليه ممن جاء بعده ، كما ان شعره لم يؤيد غير عكس ذلك ، فكان الدين عنده من اهم ما يحمد عليه الممدوح كقوله :

وصليب القناة والرأي والاسلام سائل بذاك عنه الصليبا
وعر الدين بالجلاد ولكن وعور العدو صارت سهوبا
فدروب الاشراك تدعى فضاء وفضاء الاسلام يدعى دروبا
قد رأوه وهو القريب بعيدا ورأوه وهو البعيد قريبا

وقوله :

ولولا ابو الليث الهمام لأخلقت من الدين اسباب الهدى وارثت
أقر عمود الدين في مستقره فقد نهلت منه الليالي وعلت

وقوله :

ولقد شفى الاحشاء من برحائها ان صار (بابك) جار (مازيار)
ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثالثا اذهما في الغار
وكأنما انتبذا لكيما يطويا عن (ناطس) خبرا من الاخبار

---

(٧٣) المؤلف : ٣٠
(٧٤) المؤلف ١١

سود الثياب كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدارعا من قار
بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن راهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار
كادوا النبوة والهدى فتقطعت أعناقهم في ذلك المضمار

وقال في مدحه الامام عليا رضي الله عنه وكرم وجهه :

أخوه اذا عد الفخار وصهره فلا مثله أخ ولا مثله صهر
وشد به ازر النبي محمد كما شد من موسى بهارونه الازر
وما زال صبارا دياجير غمرة يمزقها عن وجهه الفتح والنصر
هو السيف سيف الله في كل مشهد وسيف الرسول لاددان ولا دثر

ومما لا نقر المؤلف عليه ، ما زعمه من تعطيل الحدود الشرعية في بغداد ، حتى عادت المحرمات ترتكب علنا ، وان مراقبة الفساق في المدن البعيدة اشد منها في بغداد ، وان ذلك كان سببا في تستر فساق الاقطار وتهتك أهل العاصمة(٧٥) .

ان الاعتدال في اللهو لايخص عصرا دون عصر ، أو يفترق به قطر عن قطر ، ولم يكن شعراء بغداد كلهم طبقة ماجنة مستهترة ، وشعراء الاقطار الاخرى طبقة متزنة وقورة ، فان في بغداد من شعراء ذلك العصر كثيرا من اهل الاتزان والوقار بجانب اهل الخلاعة والمجون ، كما نجد مثل ذلك في الاقطار الاخرى كمصر والشام وخراسان وغيرها ، فمناهضة التهتك لم تختلف في بلد دون بلد ، وليست مطاردة المتهتكين خفيفة في بغداد شديدة في غيرها ، فكثيرا ما نقرأ مجونا في شعر الاقطار ، وكثيرا ما نقرأ زهدا وعفة في شعر بغداد ، وان ما نقرؤه من مجون ابي نواس والخليع والحسين بن الضحاك ، واضرابهم من شعراء بغداد ، ليس أشد مما روي

(٧٥) المؤلف ٢٢

عن ديك الجن من مثل قوله الذي خرج به عن ادب الدنيا والدين :

فنل من عظيم الوزر كل عظيمة اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

وقولـــه :

أنت حديثي في النوم واليقظه ، أتعبت مما أهذي بك الحفظـــه
كم واعظ فيك لي وواعظـة ؟ لو كنت ممن تنهاه عنك عظه !

ان الحدود الشرعية لم تتعطل لا في عواصم الخلفاء ولا في خارجهـا من الاقطار الاسلامية الاخرى ، غير ان المشروع ان تدرأ الحدد بالشبهات• وبذلك كان سبيل الى تخلص كثير من المجان من الحد لدى بعض أهـل الحكم حسب الاجتهاد في كيفية درء الحدود وتعيين الشبهات ، ومما يدرأ الشبهة ان الشعر الماجن ليس اقرارا صريحا على ارتكاب المحـــرمات او مباشرتها ، وان كان اقرارا على الاستهتار في القول ، فليس على ذلك من حد منصوص عليه ، ذلك لان المألوف البياني أن الشاعر يتخيل الامور ثم ينزلها منزلة الواقع ، وذلك ما أخرج أغلب الشعراء عن العـــدالة التي يتوقف عليها تنفيذ الاحكام الشرعية • فقد جرحت عدالتهم بقوله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون • وانهم يقولون مـا لا يفعلون) ولم يسلم من هذا الحكم الا من شملهم الاستثناء بقوله تعـالى : (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعـد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) •

وعلى هذا فان غير الصالحين من الشعراء أنزلوا من الشرع منزلـة لايعتد بها عند أهل العدل في الاسلام • اما من الناحية الفنية فان للشعراء منازلهم التي يتراوح السمو فيها بنصيبها من روعة بيانية ، وهكذا يتخلص الشاعر من الحدود اذا جهر بالسوء ، وكثيرا ما كان المباشرون للمحرمات يحتاطون في مباشرتها ليكونوا في نجوة من عواقبها • وحينما قال أبو نواس

هذا البيت :

الا فاشربوا، وازنوا، ولوطوا، وقامروا مصيركم عندي هي الجنة الحمرا

قال العلماء لو كان قد قال : (هي الجنة الكبرى) كان كافرا باجماع المسلمين ، ولكنه احتاط من هذه المنزلة المشينة بقوله :(هي الجنة الحمرا) فانه اراد بها نار جهنم لأنها مصير كل من يعمل مثل هذه الموبقات ، وانما عبر عن هذا المصير بكلمة (الجّنة) لانه أراد ان يتهكم بهؤلاء الذين أمرهم بهذه الموبقات ، وذلك بمثابة قوله تعالى للكافر حينما يذوق العذاب : (ذق أنك أنت العزيز الكريم) وليس هو بعزيز ولا كريم بعد ان ذاق العذاب المهين ، ولكنه تعالى وصفه بذلك على سبيل التهكم .

ومما ذكره المؤلف : أن الفساق من أهل حمص « كانوا يرنادون الميماس ليشربوا الخمرة وليفسقوا »[٧٦] ، واشار الى أن الميماس متنزه عام يؤمه أهل حمص لهذه الغاية ، وهذا يخالف ما كان ذكره من تستر أهل الاقطار خشية المناهضة الشديدة[٧٧] ، فليس من التستر أن يرتادوا المتنزهات العامة بقصد الشرب والفسق .

وبعد ، فان الاخلاق التى ربتها آداب الاسلام لا تسمح بالتهاون الى درجة تكوين الاحزاب الماجنة وتعيين مبادئها ، وليست هنالك محلات عامة تهتك فيها حرمة الحدود لا في بغداد ولا في الشام ولا في خراسان ولا في أي قطر او بلد .

٣ ـ الثقافة الادبية

وهنا أعود أدراجي الى مناقشة الدكتور عمر فروخ حول المرحلة الاخيرة من مراحل الثقافة التي تدرج بها أبو تمام ، فقد ذكر أن مصر هي آخر مدرسة بلغ فيها الرتبة التي تلفت الانظار .

---

(٧٦) المؤلف ٢٢
(٧٧) المؤلف ٢٢

ولا أريد أن ألاحظ على تعيين الموطن لهذه الثقافة ، ولا يبعد أن يكون لمصر أحسن الاثر في تلقيها ، فقد قضى فيها ما يربو على الخمسة أعوام ولكن الملاحظة أن أرى المؤلف متردداً في تعيين السبب المباشر لشخوصه من دمشق الى حمص ثم الى مصر ،

فهو يذكر تارة انه هرب الى حمص خشية أن يفتنه أهله في دينه ، فقد وجد حياته غير هادئة في دمشق بعد اسلامه ، ثم شد الرحال الى مصر لانه وجد مدينة حمص لاتبعد كثيرا عن دمشق[٧٨] •

ويذكر تارة انه انما سافر الى حمص بغية التخرج في فنه[٧٩] ، ثم سافر الى مصر طلبا للمال ، واستدل على ذلك بما تشير اليه « قصائده الاولى خصوصا ما كان منها في الفخر او الوصف »[٨٠] •

غير انه عاد الى تأييد رأيه الاول بانه خاف أهله ان يفتنوه في دينه ، فرحل الى حمص ومنها الى مصر[٨١] ، وأبطل ما ذكره من طلبه للمال معللا ذلك بأنه امتهن السقاية في مصر ، وان هذه المهنة لاتحمله على السفر من بلد الى بلد اذ كان باستطاعته ان يسقى في مساجد « دمشق أو حمص أو في بلد أقرب من مصر »[٨٢] ، قال ذلك بعد ان جعل المال هو السبب الاول لهذه الرحلة وجعل ما رآه ظاهرا في قصائده الاولى دليلا عليه •

ومما يدل على تردده بين هذه الاسباب انه يورد لكل منها ادلته ، ثم يعدل عنها الى غيرها دون ان يرجح أيها هي أقوم ، فلنضع تلك الاسباب وحججها على ضوء البحث الذى يدلنا على حقيقة الواقع من أمر أبي تمام •

فأما أنه خاف على دينه أن يفتنه أهله فهرب الى حمص ثم الى مصر فذلك ما لا نطمئن اليه ، اذ باستطاعته أن يأمن جانب اهله فلا يتحمل

---

(٧٨) المؤلف ١٤

(٧٩) المؤلف ١١

(٨٠) المؤلف ١٣

(٨١) المؤلف ١٤

(٨٢) المؤلف ١٣ـ١٤

عناء الهروب من بلد الى بلد ، فان الدعوة الاسلامية كانت قائمة بقوة سلطانها وبتأييد الرأى العام لها ، ولا يتجرأ أحد ان يقف دون انتشارها وتوسعها في أي بلد اسلامي ، وليس لأجنبي ما يحد من حرية السلطان الاسلامي في ذلك العهد كهذه الامتيازات الاجنبية التى بدأ الغربيون يتوصلون بواسطتها الى بسط نفوذهم الاستعمارى على ممالك الاسلام وحرية المسلمين. وليس له عهدئذ كهذه المجاملات التي يتذرع بها خذلاننا فتجعل عداءهم صداقة وتحالفا ،

وعدنا من الخذلان في عقر دارنا   نجامل بالاحسان من لم يجامل

هذا مع العلم ان القوم الذين لقنوا أبا تمام هدايته الى الاسلام لابد ان يكونوا هم الذين ضمنوا له حرية الانضواء الى لوائه العزيز ، ولو تجرأ أهله أو غيرهم محاولين فتنته في دينه لقام الرأي العام وقعد ، ولانتشرت فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منهم خاصة ، ولعد ذلك من الكبائر التي يجب على السلطة القائمة ان تستأصلها أو تستأصل هي بثورة جامحة •

وأما أنه سافر الى حمص ليتخرج بفنه ، فهذا يثبت أن له فنا ، ولكن الدكتور لم يمهد لهذا الفن بما يدل على نشأته ، وكيفية بدئه به وما هي العوامل الموجهة اليه • وكل ما ذكر عن ذلك لايعدو قوله : « ان حياته الشعرية بدأت في حمص باتصاله بأحمد بن عبدالكريم الطائي وديك الجن الحمصي الشاعرين »[٨٣] ، ولا يفهم من هذا ان له فنا قبل شخوصه الى حمص ، كما ان هذا لايتسق مع ما ذكره من طفولته أيام كان يشتغل بالحياكة في دمشق ، فقد ذكر أنه فارق دمشق قبل ان يبلغ السن التي تقرب من الرشد ، وهذه السن لا تؤهله لان يتخذ فنا وهو لايزال متأثرا بلكنته الرومية فمتى ارتاض لسانه على اللغة حتى يقيمه للنظم وسنه لم تبلغ الرشد بعد ؟

---

(٨٣) المؤلف ١٢

ومما يجعلني أغرب في الضحك أن يأتي احد المتأدبين عندنا ، فيظن ان وصف شاعرنا بان في لسانه حبسة شديدة عند التكلم ، ان هـــذه الحبسة لكنة رومية ليثبت دعواهم : انه رومي ، فكأن المؤرخين عاجزون عن ان يقولوا : انها لكنة أعجمية ، وكأن اللغة العربية تضيق عن ذكرها فلأي شيء لم يضق ذكرها لدى مترجمي الشاعر الاعجمي عطاء السندي وضاق لدى مترجمي أبي تمام ، فان لم يجز أن تكون هـــذه الحبسة اللسانية مرضية فما يعلل قولهم في بقية وصفهم لشاعرنا بانه اسمر طوال ..؟

واما اذا كانت غاية ابي تمام التوسع في فنه كان صرف هجرته الـــي بغداد ، فان فيها ما يكفل له كل رغباته ، ولا يرد هذا ما ذكره الدكتـــور فروخ من ان ابا تمام « لم يكن قد بلغ من الشعر رتبة تلفت الانظار »[٨٤]، لأنه لم يكن في شعره قاصدا للتحدي ، ولا يمنع ان يذهب اليها للتعلم أو لطلب المال أو للهروب بدينه ان يفتن فيه ، وكل ذلك مضمون له في عاصمة الخلافة ، ولا تشترط في دخولها الكفاءة التي تلفت الانظار ، هذا مع انه لم يذهب الى مصر بصفته شاعرا أو أديبا كما يفهم من حديث المؤلف .

واما طلب المال فقد تردد في جعله سببا مباشرا لسفر الشاعر ، فقـــد ذكر أنه بعد وصوله مصر « انتهز فرصة وجوده بالمسجد الجامع » فيهـــ « بسقي الماء » فلزم « حلقات الادب خاصة » وعاد «يستمع الى املاء الاديب او مناقشة أصحابه » وكان ينتهز هذه الفرصة « ليزداد علما »[٨٥] . ثم يرجع فيقول : ان سقاية الماء لاتدعوه الى التنقل في البلاد ، فان باستطاعته ان يسقي الماء في مساجد «دمشق او حمص او في بلد أقرب من مصر»[٨٦].

فمن جهة يجعل وجوده في المسجد لغاية السقاية ، ولكنها أصبحـــت له فرصة يطلب فيها العلم او يزداد معرفة في أثنائها . ومن جهة أخـــرى

---

(٨٤) المؤلف ١٣
(٨٥) المؤلف ١٤
(٨٦) المؤلف ١٣-١٤

يجعل وجوده في المسجد كان لطلب العلم أو للازدياد منه ، ولكن الحاجة ألحت عليه ، فاتخذ السقاية مهنة لمعيشته ، ولا أعلم كيف يتسنى له الازدياد من العلم والاستماع الى أمالي الادباء أو مناقشات العلماء ، وهو « اذا طلب احد شربة ماء سقاه »[٨٧] ؟! وكيف يسعه ان يزاملهم في الاستماع والمناقشات وهو مشغول بخدمتهم ••؟! ولماذا لايصرفه هؤلاء الزملاء عن الانشغال بخدمتهم الى الاشتراك الجدى معهم بتأمين حاجته التى يدل على قلة مؤونتها انه امتهن لها السقاية القليلة الاجر ••؟! ثم كيف يأتي الى مصر لطلب المال ويقتنع بمهنة السقاية وهي مهنة من لايطلب المال ، ولا يريد الا سد الرمق ••؟! •

ويفهم من قول المؤلف : ان ابا تمام لازم حلقات الادب ليزداد علما ، أنه كان قد بلغ منزلة من العلم ، فهو انما ينشد الكمال ، اذ الزيادة تعني التوسع في العلم أو في الادب على سابقة له فيهما ، فماذا ينكر عليه بعد هذا أنه قد بلغ تلك الرتبة التي تلفت الانظار فلا يحق له ان يذهب الى بغداد ؟! [٨٨]

على ان الدراسة التي ينتهز الطالب الفرص لتلقيها بين قوم « اذا طلب أحدهم شربة ماء سقاه ثم رجع الى مكانه » منهم «يختلس الرأي بعد الرأي والرواية بعد الرواية »[٨٩] لهي دراسة عقيمة جدا ، لاتصلح ان يكون لها الاثر في تكوين المواهب أو خلود الرجال ، وهذا غير ما أصبح عليه أبو تمام •

ومما ذكره المؤلف : « ان مقام أبي تمام في مصر لم يطل كثيرا »ولكنه مع ذلك « استقى العلم وفنون القريض»[٩٠]، هذا مع ما كان ذكره من أن حياته الشعرية بدأت منذ كان في حمص ، أى قبل شخوصه الى مصر ،

---

(٨٧) المؤلف ١٤ و ٢٣
(٨٨) المؤلف ١٣
(٨٩) المؤلف ٢٣
(٩٠) المؤلف ١٤

فكيف يصح لشاعر بدأ حياته الشعرية وهو لم يسبق له علم بفنون القريض، حتى استقاها بعد زمن ، مع ان القريض وفنونه أول أسباب الشعراء ••؟!
ثم انى له ان يستقي العلم وفنون القريض في عهد « لم يطل كثيرا » ثم يتقدم فيهما تقدما أخمل كل من كان يخدمهم ، فلم يشتهر منهم أحد غيره، ولم يتسن له أيام كان بين شعراء حمص وأدبائها في عهد أطول من هذا العهد ولم يكن مشغولا بخدمة أحد ان تكون له هذه المنزلة الادبية المرموقة الرفيعة •

هذه ملاحظات هامة أتلمس لها الحقائق من منطقها الصحيح متتبعا لها مظان الصواب في حياة الشاعر التي أضعها في غير هذه الرسالة •

نزعة الحرية العقلية

أشار المؤلف اثناء مروره بالحركة العلمية في عهد المأمون(٩١) الى ذلك الجدل الذي أثار، مذهب الاعتزال في كثير من الموضوعات الكلامية ، كالقول بخلق القرآن ذلك القول الذي تأيد زمنا بنفوذ المأمون واستمر الى ايام المتوكل وكان سببا في محنة كثير من العلماء، ولم يستمد المؤلف هذا البحث من اتجاهاته وظروفه الخاصة ، فقدر الامور بشذوذها وتطرفها •

ومن الغريب ان نرى فريقا من الملمين بتاريخ هذه الحركة ينظرون الى مذهب أهلها نظرة استهواء لمجرد خروجه عن التفكير الاسلامي ، ومما يدعو الى التأمل أننا نجد المبشرين من ذوي الاستشراق يتظاهرون باعجابهم بهذا المذهب الاسلامي ، ويهتمون بنشر مبادئه لتدخل الثقافة الاسلامية الحديثة ، ويبثونها على انها مذهب الحرية العقلية ، هذا مع ان وظيفتهم التبشيرية محاربة هذا الدين على اختلاف اتجاهاته الفكرية ، فان كانوا

---

(٩١) المؤلف ٢٩ـ٣٠

صادقين في دعواهم بالميل الى هذا المذهب الاسلامي فليسلكوا سبيله ،ولعمري انه اهدى سبيلا من وثنيتهم التي يبشرون بها بلا جدوى •!!

وغاية أمرهم في موقفهم المعاكس لعملهم أنهم وجدوا الاسلام أقوى من معاول زيفهم الذى يريدون ان يهدموه بها ، وأشد من محاولاتهم الاستعمارية التي يريدون ان يطفئوا نوره بظلامها ، فعمدوا الى صرف الثقافة الى ما شذ عن حقيقة الاسلام الثابتة ، وان كان صورة اسلامية اخرى، ليوسعوا شقة الخلاف بين أهله لئلا تتحد كلمتهم ، ومن المؤسف ان نرى في امتنا مستجيبين لدعوتهم ، فاتخذوا المضلين عضدا ، وكان عليهم أن يفكروا فيما وراء الاكمة من محاذير ، والا فلا غرابة ان تستعرض الحركة العلمية في زمن المأمون فيظن « انه لما توفي المأمون ترك وراءه نزعة من الحرية العقلية لم يعرفها الاسلام من قبل ، ولا عرفها من بعد ، وربما لن يعرفها الى الابد »(٩٢) •

وهذا حكم له خطره ، يقف امامه التاريخ مقررا قوله الفصل الذى تتلاشى به الآراء وتبطل عنده النزعات •

ان كلمة (الاسلام) تطلق على هذا الدين الذى حمل رسالته محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، ونزل به القرآن الكريم ، وقامت دعوته ـ أول ما قامت ـ على المعرفة فبدأت بقوله عز من قائل : (اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم • الذي علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم) • وقد توسع امر هذه الدعوة باستمرار الطلب للمعرفة بقوله تعالى : (وقل رب زدني علما) ، واكده النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (كن عالما أو متعلما أو مستمعا ، ولا تكن الرابعة فتهلك) •

ووجه الهلاك هنا انلايقدر المسؤولية الاجتماعية مناحيتها المشروعة،

---

(٩٢) المؤلف ٣٠

اذ العلماء هم أولى أن يفهموا الحقائق ، وأجدر ان يقفوا أمام عظمة الله التكوينية في خشوع وادكار ، كالقانوني ، فهو اولى أن يفهم احكام التشريع ، وأجدر ان يقف امام الاحكام بتقدير المسؤولية ، ومبلغ صلتها بالقوانين ، وعلى هذا ينظر القول في الآية الكريمة : (انما يخشى الله من عباده العلماء) .

عهد المحنة

لا أريد أن اعيد بحثا طواه الزمن وفرغ منه العلماء في مبدأ أثري لم يتأيد من طبيعة الخلود بما يستحقه التفكير الصحيح ، فذهب كالزبد جفاء ، ومكث الحق بعده في نفع الناس .

والمهم من ذكره هنا : ان الاعتزال لم يستحدث في عصر المأمون ، وليس له ولا لأحد من رجال عصره عمل في توليده فقد اعتزل أصحابه العلماء في بعض الآراء الكلامية زمن الدولة الاموية ، ثم تطور الكلام في آراء هذه الطائفة وتشعب بمرور الايام ، ولم يستمد من الفلسفة احكامه النظرية الا بعد انتشار الترجمة التي أصبحت سبيلا الى تأسيس البحوث العلمية كلها سواء كانت في الدين أو في اللغة بما فيهما من فروع على هذه النظريات الفلسفية ، ولم يختص مذهب الاعتزال وحده بها .

غير أن قسما من العلماء أرادوا أن يكون ما جاء به الدين أساسا لقضاياه التي بينها القرآن الكريم وشرحتها السنة النبوية بعيدا عن الجدل الفلسفي لان الفلسفة تبعده عن الفطرة التي تفتح القلوب الى الايمان وترتضيه العقول لسماحته ووضوحه ، فاذا عقدته الفلسفة اخفاه الغموض حتى تصبح نظرياته غير مستساغة للعقول كلها ، وانما الدين مبدأ لكل عقل وكل قلب .

ان الفلسفة اذا روعيت في أبسط الاشياء ، وأقربها من البديهة

حجبتها بطبقة كثيفة من التعقيد لاتنفذ وراءها الا القلة ، وهذه هي الملاحظة التي جعلت العلماء لايميلون الى اخضاع العقيدة للفلسفة وان كانوا لاينكرون ان يكون للفلسفة شأن علمي في ماعدا العقائد التي هي من حق كل الناس خلافا للفلسفة التي هي من حق بعض الناس •

أما العلماء الذين ذهبوا في العقائد مذهبا فلسفيا فلم يقع بينهم وبين مخالفيهم سوى مناظرات علمية افادت العلم والادب واللغة والتاريخ والعلوم الدينية فائدة تتجلى فيها صورة التفكير الاسلامي بأبهى ما ظهر به العقل ، حتى الذين أبوا ان يخضعوا العقائد للفلسفة كانت تعليلاتهم لتأييد مذهبهم دخولا في الفلسفة الدينية من حيث المناظرات العلمية التي خلدوا فيها تراثا عقليا ضخما •

ولم يصطدم علماء المعتزلة بمقاومة أو أكراه ، بل كل ما كان بينهم وبين علماء الجمهور لايعدو بسط الآراء حول التفسير والتأويل ، وكانت حرية البحث واسعة جدا لانفوذ عليها لامير أو خليفة ، حتى ان الخليفة المنصور العباسي ـ ولم يكن معتزليا ـ كان يحترم عمر بن عبيد مع انه كان رأس طائفة من طوائف المعتزلة ، وكان يتمثل اذا رآه :

كلكم يمشي رويد ... كلكم خاتل صيد
غير عمرو بن عبيد

فلما تبع المأمون مذهب المعتزلة سلك لتأييده سبيل الارهاق والفتك ، وبدلا من أن يوسع حركة الجدل بين العلماء ويهيء مجالسه على بساط الحرية ، ويعقد المناظرات الحرة بين أهل العلم اذا به يستعمل نفوذه بدون روية ويضرب حرية الرأي والاعتقاد ، ولم يمنعه عقله ولا حلمه ولا علمه عن تضييق نطاق الحرية وتشديد الخناق على كثير من علماء عصره بمجرد مخالفتهم للرأى الذي يريده •

ومما يؤخذ به علماء المعتزلة في زمنه انهم كانوا يحرضونه على فرض

مذهبهم بالاكراه والشدة ، وقد حمله بشر المريسي واحمد بن ابي دواد الايادي وأشياعهما على اضطهاد العلماء وسفك دماء بعضهم ، وعادت هذه الحركة التى عدها المؤلف نزعة من الحرية العقلية وصمة شنعاء في تاريخ المأمون . وبحق سماها المؤرخون (المحنة) .

وكان ممن قتل في هذه الحركة الهوجاء الامام أحمد بن نصر الخزاعي المشهور بالعلم والتقوى والزهد ، وممن سجن وعذب الامام المتبع أحمد بن حنبل المجمع على فضله باختلاف المذاهب ، ولم ينته تعذيبه الا في خلافة المتوكل الذى أبطل القول بهذا المذهب وأطلق العلماء ورد العقل الى حريته ، وأزال هذه المحنة عن رجال العلم .

ومما زاد في شناعة موقف المأمون من هذه الحركة انه اوصى بها حين أحس بالوفاة ، وأمر بالتشدد في امرها ، وكان حريا ان يقال فيه :

« انه لما توفى المأمون ترك وراءه نزعة من الارهاق لم يعرفها الاسلام من قبل ، ولا عرفها من بعد ، ونرجو الا يعرفها الى الابد » .

وقد قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية في ذلك : « ما أظن أن الله تعالى يغفل عن المأمون العباسي ، ولابد أن يعاقبه على ما أدخل على هذه الامة » .

وليس هذا برأي ابن تيمية وحده بل هو رأى الامة الاسلامية جمعاء لما تركته هذه الحركة من الاثر السيء في قلوب المسلمين على ما أصاب أئمتهم جراءها من الامتهان .

أين هذه الحرية المزعومة من نزعتها المعروفة في تاريخ علماء الاثر؟ فانه لم يسجل عنهم أنهم أكرهوا أحدا على معتقده ، حتى ولو كان ممن يذهب مذهبا مغاليا في الكلام ، وكل مواقفهم الاقناع بالمنطق الصحيح والمجادلة الحسنة ، وما أجدر بالمسلم ان يسلك في مناظراته السبيل المشروعة بقوله عز من قائل : (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من

الغي) وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (اذا أصاب المجتهد فله أجران ، واذا أخطأ فله أجر واحد) لان كليهما يريد الحق ونفع الامة ، فان أصاب هدفه فقد افاد ، ونال أجر اصابته وأجر نيته الحسنة ، اما اذا أخطأ فأجره على قدر حسن نيته لانه تحرى ولم يقصر •

ولم تكن الشدة الا اذا ثبت ان في الامر نية سوآى أو قصدا قبيحا أو عقيدة زائغة مع عدم توفر شروط الاجتهاد ، فان الحرية في مثل هذه الحال ضرر على العلم واضلال لليقين وتضليل لناشئة الامة ، فيكون من الاولى ان تحد هذه الحرية لتمحي معالم التهريف الذي ليس وراءه الا المكابرة والتضليل •

واما ما ذكره المؤلف من ان ابا تمام قد « احتك بهذه » الحركة «أيضا •• واستفاد منها وانبعض أثرها » قد ظهر « في حياته وشعره»[٩٣]، فذلك غير مؤيد بحوادث الشاعر ولا هو صريح في أدبه وشعره ولا تعدو أمثلة ذلك المحاولات المتكلفة ، والكلمات العابرة التي لاتدل على احتكاك بهذا المذهب الكلامي ، وان كان غير بعيد أن يدين باراء دولته كل متملق يرجو الحياة في ظلها ورعايتها •

---

(٩٣) المؤلف ٣٠

القســم الادبي

شخصية الشاعر

الشعر هو التعبير عما يختلج في النفس من معان تحسها العواطف في ظروف مختلفة لاغراض مختلفة ايضا ، ولا تتوارد هذه المعاني الا بقدر ما تسمح به مقاييس تلك الظروف ، وبمبلغ أثرها في النفس ، كما أن رونق التعبير يتوقف على مدى روح الشاعر وأثر مزاجه الخاص ، وبناء كيانه الجسمي ، وبذلك يحصل الارتباط بين الشاعر وشعره للمحافظة على صورة النفس الصادقة مهما بعدت بها المناسبات ، لان للتربية الاجتماعية وطبيعة الذوق ، والميول النفسية ، ملامح تحتفظ بها النفوس ، فتبدو من خلال أقواله ، ولو من وراء لمحات متقطعة .

لقد كان الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي المتوفي سنة ١٩٣٧ قد نظم قصيدة يتذكر بها ايام المستنصرية المدرسة التي بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله على نهر دجلة في جانبها الشرقي في منتصف القرن الخامس الهجري وقد استهلها الشاعر بقوله :

ههنا كان الشعب يلفي دليلا   كلما رام للمعالي وصولا

والظاهر من هذا البيت انه ــ وان كان وزنه مستقيما ولكنه ــ مشلول العبارة تابع لبناء كيان الشاعر الجسمي ولولا ذلك لكان قال :

ههنا الشعب كان يلفي دليلا   كلما رام للمعالي وصولا

فيتخلص من هذه الجملة المعلولة ، ومن ذلك انه كان يتبجح بنظمه قصيدته المعروفة (بثورة في الجحيم) وكان يعدها آية معجزة في الشعر العربي ، وقد استهلها بقوله :

عندمـــا مت واحتـــواني الحفـير جـــاءني منكر وجـــاء نكـــير
ملكان اســـطاعا الظهور ، ولا أد رى : لماذا ؟ وكيف كان الظهور ؟

فكتبت حينئذ تعليقا على هذا المطلع في جريدة (النـور) التي كان يصدرها الشاعر الاستقلالي العراقي الاستاذ عبدالرحمن البناء رحمه الله ، وقد قلت في هذا التعليق يومذاك : ان الشاعر قد اعتبر هذه القصيدة من الشعرالمعجز وبينت ان الشعر المعجز في البيانهو انيسلم من كل هنةوشائبة بيانية ، والعيب في هذا البيت تكرار الكلمة (وجاء) بعد قوله (جاءني) وهذا من الحشو المعيب المخل في عبارته ، لاسيما وان هذا البيت مطلع لهذه القصيدة التي يعدها معجزة في الكلام .

فغيرها الشاعر بقوله :

عندمـــا مت واحتواني الحفـــير جاءني (يرغـو) منكـر ونكـير

فاعترضت على هذا التغيير ان يأتي بكلمـــة ليست بـذات موسيقى شعرية ، وهي خالية من الرونق البياني او الذوق السليم ، وذكرت انه لو قال :

عندمـــا مت واحتواني الحفـــير جاءني (فيـــه) منكر ونكـــير

لكان اسلم له من العيوب ، فاخذته العزة بالاثم وبدلاً من ان يغيرها بعبارتي التي هي ليست له جعلها :

عندمـــا مت واحتـواني الحفـــير جاءني (تـــوا) منكر ونكـــير

واستمر على هذه الكلمة القلقة والتعبير المضطرب ، واحسست ان الشلل في الكيان الجسمي يؤثر في جميع ما ينظمه الشعراء من الجمل ولهفي ذلك أمثلة كثيرة ، وانما استمر مع الزهاوي شلل البيان في شعره ، لانه اصيب بالشلل الجسمي كما ذكر ذلك في ترجمته بانه اصيب به وعمره يربو على

الثلاثين سنة واستمر معه الى أن مات ، وكان قد ذكر هذا بقوله :

وقـــد أحــاول أن أمشي فتمنعني رجل رمتها يــد الاحداث بالشلل

فروح الشاعر وأثر مزاجه الخاص وبناء كيانه الجسمي والتربيــة الاجتماعية ، هى التي تقوم بصقل ذوق الشاعر وتوجيه ميوله النفسية ، فتبدو من خلال أقواله ملامح تحتفظ بها النفوس ، ولابد ان يتجلى ذلك في كل قول وعمل لكل ذي فطنة ريضة •

ومهما احتال الشاعر على اكبات دخيلته بمهارة لبقة ، أو احتاط للظهور بغير حقيقته الراهنة ، وتخفى وراء دقة الصنعة ، فلابد هنالك من شعور خاص تأبي الا أن تنفذ منه الملامح الصادقة لتلك الحقيقة المكبوتة رغم كل احتيال بمهارة • او احتياط بصنعة •

ومهما تكن عند أمرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلـــم

فالشاعر لابد أن يستوحي نفسه الخاصة في شعره أراد أو لم يرد ، فيظهر شبح الحقيقة الكامنة في النفس مهما سترها جمال الصنعة او اختلق لها الخيال غير صورتها •

ولذلك أمثلة يمكن ان تـدرك بســهولة او تستخرج من غوامض عميقة ، ولنورد من أمثلتها القريبة ما تكون أدلة على أمثلتها البعيدة ، فهذا المتنبى كان في مصر عند كافور الاخشيدي ، فصادف ان قتل شبيب العقيلي عدو كافور ، فوجب على المتنبى ان يهنيء كافورا بقتل عدوه ، فخرجت بالشاعر مشاعره الخاصة الى لون آخر هو الى رثاء القتيل أقرب ، وعد هذا الظفر الذي أحرزه كافور انما جاءه من تصاريف الاقدار ، وجرى على حسب ما انطبع في نفسه من أثر هذه الحادثة ، فقال لكافور :

عدوك مذموم بكل لســـــان وان كان من اعدائـــك القمران

ولله ســــر في عـــلاك ، وانمــا كلام العـدى ضرب من الهـذيان

برغم شبيب فارق السيف كفـــه وكانا عـلى العـــلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسـيفه : رفيقـــك قيسي ، وأنت يمـــاني
فنـــال حياة يشـــتهيها عـــدوه وموتا يشهى الموت كل جبـــان
قضـى الله يا كـافور أنـــك أول وليس بقاض أن يـرى لـــك ثان
فما لك تختـــار القسي ؟ وانمـا عن السعد يرمى دونك الثقـــلان
وما لك تعنى بالأسنة والقنـــا ؟ وجدك طعـــان بغـــير ســنان
ولم تحمل السيف الطويل نجاده ؟ وأنت غني عنـــه بالحدثـــان
ارد لي جميلا جدت أو لم تجد به فانـــك مـــا أحببت في أتانـــي
لو الفلك الـدوار أبغضت ســعيه لعوقـــــه شيء عن الـــدوران

أفهذا تهنئة ومدح لكافور أم رثاء لعدوه القتيل ؟ واستهجان بالمقادير الجارية على العكس من الرغبة ، وقد أبت على المتنبى ميوله الا أن تنطق بالواقع من اثرها في نفسه وتخرج الى رغبـاته الصـــريحة المنفجرة عن حزنه على شبيب فلم يستطع ان يقول غير هذا ، الامر الذي جعل بعضهم يظن ان ابا الطيب كان على تواطؤ خفي مع هذا الثائر .

ولنعد الى نفس أبي الطيب المتنبي في المثال على استيحاء الشاعر نفسه الخاصة ، فان روحيته هي التي تختار جنس العبارة اختيـارا تدفع اليـه شخصيته الشاعرة ، قال أبو الطيب :

لعمرك ليس المجـــد زقا وقينـــة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق (الملوك) وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الــــدنيا دويا كأنما تـــداول سمع المـرء أنمله العشر

فقد دل على بعد همته ،وشعوره برفعة مكانته أن يقول :

وتضريب أعناق (الملوك) وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

ولو كان قائل هذا البيت غير أبي الطيب ممن لا يحمل نفسيته الكبيرة ،

ولم تكن له همته البعيدة ، لما وسعه الا أن يقول نحوا من :

وتضريب اعناق (الرجال) وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

اذ لا تمر في خاطر غير أبي الطيب وأمثاله كلمة (الملوك) في نحو هذا القول ، ولعل المتنبي قد شعر بعلو هذه الهمة في نفسه ، فقال :

همتي همة الملوك وان كا ن لساني يعد في الشعراء

فالشاعر لابد أن يعبر عنه بيانه ولو من وراء حجاب ، فاذا كلفته المناسبات ما ليس ذا أثر في نفسه بدا من وراء بيانه أثر الشخصية ، وعلى هذا نلقي نظرة نافذة في أعماق الأغراض التي يمكن أن تبدو فيه نفسية أبي تمام ، لاسيما أغراضه التي برزت فيها قوميته ، وتجلت فيها ناحيته النفسية •

نزعات أبي تمام

نرى فيما نعرض من شعر أبي تمام على ضوء ما ذكرناه من شخصية **الشاعر أن ميوله قامت بتوجيه بيانه نحو شعوره الخاص في أغلب ما نظمه** من الشعر ، ولأمر ما كان اكثر ممدوحيه من العرب[٩٤] ، فاذا مدح غير العربي بدا وكأنه يمن عليه ان يقوم بمدحه ، وهذا وليد الاحساس بالشعور القومي ، أو كلمة الطبيعة من روح البيان في أدبه ، وان لطبيعة الاحساس بالنفس أثرا في الاسترسال لا يحول دون الحقيقة الراهنة •

ولو كان ــ كما قيل ــ : وضيع الأسرة ، خامل الحسب ، بسيط الحرفة ، دعيا في نسبه ، جرى شعوره على هذا القياس لا يتعداه ، وحال ذلك الخمول دون استرساله في التفاخر بالنباهة في الحسب ، والرفعة في

(٩٤) امراء الشعر ٢٢٩ والمؤلف ٧٨ •

النسب ، ولم تعد له تلك الحرارة على الظهور في الأندية والمجامع بين الأمراء والنبلاء بمظهر الند للند في المجد والسؤدد • وكانت أقواله في ذلك كثيرة التكلف ظاهرة الفتور باردة الروح ليس فيها أثر لحرارة البيان الذي تصدق فيه اللهجة ، وتهدج صوته وتلجلج لسانه حين يهتف بين أكثر معاصريه الذين يعرفون ما حسبه ؟ وما نسبه ؟ وما حرفة أبيه ؟ فيقول بملء لسانه :

أنا بن الذين استرضع الجود فيهم ... وسمي فيهم وهو كهل ويافع
سما بي (أوس) في السماح وحاتم ... وزيد القنا والاثرمان ونافع

فقرن أباه (أوسا) بهؤلاء الكرام الذين وصفهم بأنهم :

نجوم طواليع ، جبال فوارع ، ... غيوث هواميع ، سيول دوافع
مضوا وكأن المكرمات لديهم ... لكثرة ما أوصوا بهن شرائع
فأي يد في المحل مدت فلم يكن ... لها راحة من جودهم وأصابع ؟
هم استودعوا المعروف محفوظ مالنا ... فضاع ، وما ضاعت لدينا الودائع

وقد وصف قومه بهذه الصفات التي لا يوصف بها الا العرب ، ولا يعهد مثله في غير الادب العربي ، وأين هذه الصفات من اليونانيين أو الرومانيين ، وهم لايعدونها من الفخر القومي في أدبهم أو في تاريخهم ، ومما يصف قومه به أنهم :

بهاليل لو عاينت فيض أكفهم ... لأيقنت أن الرزق في الأرض واسع
اذا خفقت بالبذل أرواح جودهم ... حداها الندى ، واستنشقتها المطامع
رياح كريح العنبر الغض في الندى ... ولكنها يوم اللقاء زعازع

وذكر قومه بني طيء بكل فخر واعتزاز ولم يرده احد من (معاصريه) الأكثرين فيرجعه الى رومانيته المزعومة فقال يذكر وقائع بني طيء وصنائعهم في كل ملحمة وكل مكرمة :

اذا (طيء) لم تطو منشور بأسها — فأنف الذي يهدي لها السخط جادع
هي السم ما تنفك في كل بلـــدة — تسيل به أرماحهم وهـــو ناقع
أصــارت لهم أرض العدو قطـائعا — نفوس لحد المرهفـــات قطــائع
بكل فتى ما شاب من هول وقعــة — ولـكنه قد شبن منـــه الوقائع
اذا ما أغـاروا فاحتووا مال معشر — أغارت عليهم فاحتوته الصــنائع
فتعطي الذي تعطيهم الخيل والقنـا — أكف لأرث المـكرمات موانــــع

ثم أخذ يفخر بأيام قومه في الشام بعد أن كانت أيامهم في نجــد متلألئة مشهودة • فقال :

هم قوموا درء الشـآم وأيقضـــوا — بنجد عيون الحزب وهي هواجــع
يمدون بالبيض القواطـــــع أيديا — وهن ســـواء والسيوف القواطــع
اذا أسروا لم يأســر البغي عفوهم — ولم يمس عان فيهـــم وهو كانع
اذا أطلقوا عنـــه جوامع غلـــه — تيقن ان المــــن أيضا جوامــع
وان صارعوا عن مفخر قام دونهم — وخلفهم بالجـد جـد مصارع

هكذا يذكر قومه بالكرم والندى • وبالشجاعة والبأس ، ويفخـــر بأيامهم وصنائعهم في كل موطن وفي كل مشهد ، ولم يدر بخلده غير قومه في المفاخر والمآثر ، فانهم محاطون بالفخر كله فان صارعوا عن مفخر ، او مأثر صارعوا بعزم شديد ورأي اكيدفيقوم (دونهم) و (خلفهم) جدود تعترف لهم أيامهم البيض بانهم يصارعون كل منكر ، ولم ترد على الشاعر دعواه في هذه القصيدة التي قال فيها النقاد[٩٥] : انها من أجود ما افتخر به محدث،وذكروا انه قلما نجد في الافتخار شعرا يدانيها •

ولما انصرف من مصر محتقبا الخيبة المرة بعد أن مكث فيها ما يربو على الخمس سنوات ، وعاد الى دمشق موطن أهله الساكنين في قرية جاسم ، رجع الى نفسه باللائمة على هذه الرحلة الخائبة ، وناجاها بذكرياته عــن

(٩٥) ديوان المعاني : ١/٨٤ •

أهله الذين هم أولى أن يعتز بهم ، وهنا يتجلى صدقه تجليا واضحا لأن شعره نفسي خالص صادر عن نفس زاهدة في المجد والسؤدد فقال :

بنفسي أرض‌الشام، لا أيمن‌الحمى، ولا أيسر الدهنا ، ولا أوسط‌الرمل
ولـــم أر مثلي مستهاما بمثلـــكم ولا مثل قلبي فيه ما فيه لا يغلي
عدتني عنكم مكرها غربة النـــوى لهـا وطـــر في أن تمر ولا تحلي
اذا لحظت حبـلا من الحي مقصدا رمته ـ فلم تسلم ـ بناقضة الفتل
أتت بعد هجر من حبيب فحركت صبابة ما أبقى الصدود من الوصل

ثم ذكر المدة التي عدته فيها غـربة نوى لا تلاحـظ للشمل حبـلا مفتولا الا نقضته فقال :

أخمسة أحــــوال مضت لمغيبـــه وشهران بل يومان ثكل من الثكل

وكاد يقرب من نجاحه في بلده لولا عزماته ، وبعد همته فتوانى به الاباء ان يلاقي الدنايا ، فوقف منها على رجل حازمة ، فقال :

توانى وشيك النجح عنــه ووكلت به عزمات أوقفتـــه على رجـــل
ويمنعه من أن يبيت زماعــــــه على عجل ان القضـاء على رســل
قضى الدهر منى نحبه يوم فتلــــه هواي بارقال الغريرية الفتــــل

فاشخصه زماعه العاجل على السفر من بلده ، فاركبه ناقته الغريرية ، فاذا به في مصر ، فخابت فيها أمانيه ، ولم يحظ بما كان يأملـه ، وكانت مراميه على وشك السير فقال :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهـــه بلا طالع سـعد ولا طائر ســـهل
وساوس آمال ، ومذهب همـــــة مخيمة بين المطيـــة والرحــــل
وســـورة علم لم تسـدد فأصبحت وما يتمارى أنهـــا سورة الجهـل

ثم ذكر انه اغترب في نواه فلم يحو مالا وفقد أهله ولم يصن وجهه

من ابتذاله ، فقد عداه ريعان السراب الذي كان يجري في قاع من يدعون الندى ويزعمون الكرم ولو شاء ذوو الفضل ان يثنوا عزمه لأخذ الحزم من أسهل مأخذ ، فقال :

نأيت فــلا مالا حويت ولم أقـم   فأمتــع اذ فجعت بالمــال والأهل
بخلت على عرضي بما فيه صـونه   وجاء اجتناء الجود من شجر البخل

ويظهر ان هنالك منغرر به في هذا السفر الفاشل فاشار اليهم بقوله:

عصيت شبا حزمي لطاعــة جيرة   دعتني الى أن أفتــح القفل بالقفل
وأبسط من وجهي الذي لو بذلتـه   الى الأرض من نعلى لما نقبت نعـلى
عداء كريعان السراب اذا جـــرى   تنشر عن منع وتطوى على مطــل
لئــام طغــام أو كرام بزعمهـم   سواسية ما أشبه الحول بالقبــل
فلو شاء من لو شاء لم يثن أمـره   لصيرت فضل المال عند ذوي الفضل
ولو أنني أعطيت بأسي نصـــيبه   اذن لاخذت الحزم من مأخذ سهل
وكان ورائي من صريمــة (طيء)   ومعن ووهب من أمامي ما يســلى
فلم يك ما جرعت نفسي من الاسى   ولم يك ما جرعت قومي من الثكل

فان كان دعيا في طيء لما بعد أن يسأله أحد معاصريه عن أولئك الذين صرف حنينه اليهم ، وهو في موقف الحسرة على عصيانه شبا حزمه وطاعته جيرته الذين غرروا به فسافر الى هؤلاء الطغام وتشوقه الى أهله الصميمين الذين فجع بهم وجرعهم مرارة الثكل على فراقه اياهم ، ولما بعد في هذه الحالة الفاشلة أن يسألوه : من هم معن ووهب ..؟ ومن هو حاتم وزيد القنا..؟ ومن هم الاثرمان ونافع .. وغيرهم لو لم يكونوا جذما في نسبه ..؟ ولو كانت روميته صحيحة لوخزه ضميره حين قال للمعتصم بعد وقعة عمورية :

فبــين أيامك اللائي نصرت بهــا   وبــين أيام بدر أقــرب النسب
أبقت بني الاصفر المصفر كاسمهم   صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

ولم يسو بين الروم والزنج في الشؤم فيقول في هجاء قوم :

الزنج أكـــرم منكم والـــروم　　　والحـين أيمـن منكـم والشـوم

وغاية اقتناع هذا الشاعر بقومه وادلاله بصفاء عنصرهم ان يقول :

لـكل من بني حـــواء عـــذر　　　ولا عـــذر لطـــائي لئيـــم

فكأن ذلك لا يقبل الرأي والجدل ، كما لو حصل الاجماع على أمر مسلم به ، ولو كان دعيا في نسبه لمنعته اللياقة والادب الاجتماعي ان يسيء الى العرب وهو من مواليهم كما يزعمون فيفخر على تميم وهي من كبريات القبائل العدنانية ، وكيف يرضى رؤساؤه ان ينطق هذا المولى الدعي في هذه القبيلة العربية فيقول :

لما رأيت الأمر أمرا جـــدا　　　ولم أجـــد من النضال بدا
لبست جلـد نمر معتـــدا　　　وجلـــد ضـرغام يقـد قدا
كان تميم لأبينـــا عبـــدا　　　أسود نضاخ المقـــد جعـدا
ونحن كنـــا للنبي جنـــدا　　　يوم بزاخـــات وردن وردا
وطيء قد ألبستني بــــردا　　　حتى فخرت وهزمت العبـدا

الا يقال له : ومن ابوك حتى يكون تميم عبدا له ..؟ وما أنت مـن طيء حتى تفخر بهم على هذه القبيلة العربية الصميمة ..؟

الزهد ومبلغ الشاعر منه

على نحو ما ذهبت اليه في تعليل كلمة الطبيعة بشعر ابي تمـام اذهب فيما نظمه من الزهد ، فانى أتفق مع المؤلف بأنه « ليس لأبي تمام في هذا الباب جيد ولا جديد »(٩٦) ، غير أني أعلل ذلك بغير تعليله ، اذ لا يمنع

---

(٩٦) المؤلف : ٩٨ .

ان « يلجأ ... الانسان ليحاسب نفسه على أعماله السالفة »[٩٧] وهو في سن الشباب ، وقد شوهد كثير من الشبان وهم في مثل هذا الالتجاء ، غير أن شاعرنا كان يحيا في جو لا يرتفع به الى جو يسمو عن حب الدنيا ، ولم تكتنفه لحظة من لحظات الانقطاع الى التأمل ، أو ما يرفعه عما يعبأ بآلام الحياة وآمالها مهما كانت شدة ورعه وتقواه .

ولما كان أهل الزهد يعيشون في هدوء لا يتصل من صخب الحياة الا بما يمكنهم من اداء واجبهم الاجتماعي لاداء الواجب الديني ، فانهم مكيفون هذا الاتصال على ما يجعله خالصا لوجه الله تعالى ، وهكذا تخلص النفس من حجب الميول النفسية ، وتصبح في صفائها ونقائها شفافة تلألأ في كل ما يعبر به من شعر أو نثر ، فتنساب الروعة في الالفاظ انسيابا ، وتحمل الى النفوس مشاعرها السهلة الممتنعة ، فيطمع الشعراء أن يأتوا بمثلها ، وانما هي اشعاع روحي يفيض على اللغة بما هو أسمى من انسجام اللفظ ، وجمال التصوير ، وقد يخلو من لمحاتها ما اصطلح عليه الناس في بلاغة التعبير وبديعه الجمالي ، ولكنها تفيض جمالا نفسيا ، يسري في المشاعر سريان الكهربة في الجسم .

تنبعث الروعة في ثنايا العبارة انبعاثها من هذه النجوى المتوجهة الى الله تعالى بالقول مما ينسبونه الى الشبلي :

كل بيت أنت ساكنه   غير محتاج الى السرج
وجهك المأمول حجتنا   يوم يأتي الناس بالحجج

فابو تمام لم يكن زاهدا الزهد المطلوب من نفسية الانسان وروحه ، ولذلك كان ما نظمه في الزهد لا يشير الى نفس مجردة من أماني الدنيا العابثة ، وانما طرق هذا الباب بالوجه الذي دعته اليه الصنعة ، فقد أصبح الزهد أحد أغراض الشعراء في عصره فكان لزاما على الشاعر ألا يدع موضوعا إلا التزم القول فيه ، وان كان بعيدا عن ظروفه الخاصة ، وقد

---

(٩٧) المؤلف : ٩٨ .

فرض الشعراء هذه الالزامات على أنفسهم ، فكان من أثرها ان استحدث كثير من الفنون البلاغية وتنوعت به فصول البديع .

فالالتزامات الموضوعية ، جرى عليها الشعراء ، وأغلبهم بعيد عن ظروفها ، ولكن حب التحدي هو الذي وسع لهم المجال ، فاذا بابي نواس الماجن يكيد أبا العتاهية الزاهد فيجاريه في زهدياته ، فنرى ابا نؤاس يتوسل الى الله تعالى بقوله :

يا رب انعظمت ذنوبي كثرة   فلقد علمت بأن عفوك أعظم
ان كان لا يرجوك الا محسن   فبمن يلوذ ويستجير المجرم
مالي سوى ذنبي اليك وسيلة   وجميل عفوك ثم اني مسلم

ويصف ابو العتاهية عدم ادكار الانسان بمصيره وانتباهه الى ادلتها الظاهرة في المقابر الصامتة فيقول :

وعظتك وعاض صمت   ونعتك أجداث خفت
ورأيت قبرك في القبو   ر وأنت حي لم تمت

فكذلك أبى شاعرنا الحبيب الا ان يضفي على شعره مسحة زاهدة .

وقد يجيد الشاعر في الزهد ، وليست له نفس منصرفة عن دنياه العابثة ، ولكن تستيقض في نفسه خلة الصفاء فيتجرد من موبقاته ريثما يستوحي روح الطهر والنقاء ، فيجدد في القول ويجيد لاسيما اذا كان من العبث على جانب كبير ، فان استيقاظه وان كان وقتيا الا انه عميق مؤثر منبعث عن ناحية من الخير كامنة في النفس نبهها الملل من الأسترسال في الغي ، فأيقظت هاجع الندم ، غير انها لاتلبث ان تعود لسيرتها الأولى ، فتكبت الصلاح لتنغمر في دنياها ، وحينئذ ينسى أبو نواس تلك اللحظة الصافية التي أنطقته بنحو قوله :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم   واسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه   فاذا عصارة كل ذاك اثام

ويأمن دنياه كأن لم يكن قد شجبها بقوله :

اذا امتحن الـدنيا لبيب تكشفت   له عن عـــدو في ثياب صــديق
وما الناس الا هالك وابن هالك   وذو نسب في الهالـكين عـريق

ولم يبعث في نفوسهم التذكر بما يعرفونه فيصرفهم عنه الغرور بما تحجبه عنهم الحياة ، فيقول لهم :

لدوا للموت وابنوا للخـــراب   فكلـكم يصـــير الى ذهـــاب

فأبو تمام انما أجاب هذا النحو من التحدي الأدبي ، فنظم في الزهد على غير استعداد نفسي له ، ولم ينتظر أن تنتبه في نفسه خلة الصفاء التـي يخلو بها الى نفسه فجاء الكثير من قوله في الزهد غير جيد ولا جديد ، ما عدا أبياتا عبر بها الفن أكثر مما تعبر عنه النفس الصافية ، وقد يكـون للفن أكبر التأثير في البلاغة ، فيستساغ بها القول .

تفكير أبي تمام

أشار المؤلف[٩٨] الى أن تفكير أبي تمام محصل ثلاثة عناصر :

الاول : علمه وسعة اطلاعه على تراث الأولين وآراء الشعراء ، فكان يستخرج أحسنها ، ويصقل بعضها ويشتق النواحي الجديدة منها ، وليس بجائز أن يستخرج الشاعر أحسن ما قيل قبله ، ويصقل ما كان غير حسن منه ثم يدعيه لنفسه ويتربع على عرش الخلود ، فما هي السرقات التـــي حددها النقاد واتخذت مآخذ على الشعراء الا من بعض تلك النواحي التي لم يشأ النقاد ان يغفروا انطباقها البياني ؟.

الثاني : كثرة تجواله وتعرفه بأمم كثيرة عرف منها شتى النواحـي

(٩٨) المؤلف : ٩٦ .

العقلية ومختلف النفسيات ، مكتسبا من ذلك تجارب كثيرة لها أثر كبير في ادبه • وهذه لعمري ناحية مهمة لتوسيع مجال التفكير عند كل شاعر يحسن استغلالها ، ولا يختص ابو تمام بها وحده •

الثالث : ثقافته الراهنة ، واراد بها تلك الثقافة اليونانية التي حاول المؤلف ان يثبت انها أول ما كان تلقاه من الثقافة ، وقد سبق ان ناقشته حولها ، وهنا يدعي على ما زعمه من يونانية الشاعر وما ذكره من ثقافته الفلسفية ، ان شعره قد اكتسب شكلا لم يكن للعرب عهد به في شعرهم بما يحويه من أساليب التفكير اليوناني حتى عاد لا يمثل الا أدبا يونانيا لأن « ثقافة شعره هي الثقافة اليونانية »[(٩٩)] ، وان هذه الظاهرة لم تبرز « في شاعر عربي بروزها في أبي تمام »[(١٠٠)] ، ثم فسر بهذا أسلوب تفكيره وانه يختلف عن طريقة شعراء العرب لانه « مثقف مطلع على الفلسفة اليونانية »[(١٠١)] وان أثر هذه الثقافة قد « صبغ تفكيره بصبغة تظهره غريبا »[(١٠٢)] ، وان هذا ما جعل النقاد يختلفون في حكمهم على شعره ، حتى قال أغلبهم عنه : « انه معقد ، وعن معانيه انها مأخوذة بعنف » ثم يرد على هؤلاء النقاد بأنه ــ عند من ينعم النظر في شعره ــ « يفكر بطريقة صحيحة » قريبة المأخذ للفكر العميق « ولكنها بعيدة عن مألوف الرجل العادي »[(١٠٣)] ، ولكنه يكسو معانيه الصنعة ويتكلفها حتى عادت أبياته الحكيمة « لا يفهمها الا النحاة أو الفقهاء أو العلماء أو الفلاسفة »[(١٠٤)] •

وقد مر كلامنا حول ثقافة أبي تمام اليونانية ، وناقشنا الرأى الذي ذهب اليه المؤلف حولها ، فان هذه الثقافة لايشير اليها ادبه ولا شعره ، واما

---

(٩٩) المؤلف : ٣٦ •
(١٠٠) المؤلف : ٣٦ •
(١٠١) المؤلف : ٣٦
(١٠٢) المؤلف : ٣٧
(١٠٣) المؤلف : ٩٦ ــ ٩٧
(١٠٤) المؤلف : ٢٩

ورود بعض الاشارات الى مصطلحات بعض الفرق الكلامية ، فلا يدل على انه فيلسوف اذ كان ذلك العصر زاخرا بالمذاهب العلمية ، وكانت هذه المذاهب شغل الناس الشاغل ، وكل عصر تشيع فيه مذاهب واتجاهات لايقتصر التحدث بها من رد أو تأييد على ذوى الاختصاص بل يشترك الناس في مناقشة كل ما يشيع من مذاهب علمية أو سياسية أو اقتصادية ، وأكثرهم يفهم موضوعه فهما مجملا ، وربما يناقش المذهب وهو لا يفهمه ، فهل نعد كل الناس سياسيين أو اقتصاديين أو علماء ؟ بمجرد مشاركتهم في هذه المعلومات الساذجة التي قد تكون خاطئة على اجمالها .

فاذا ورد في شعر أبي تمام لفظة من مصطلحات علم الكلام أو الفلسفة أو الفقه ، فهل نجزم على أنه مصطبغ التفكير بصبغة من هذه العلوم ؟ والبحث في علوم الشاعر يدور حول الفلسفة اليونانية لان المؤلف جعلها اساس ثقافته، وقد مر الكلام حولها بما ذكرت ، ولو فرضنا صحة ما ذهب اليه المؤلف أن أهل الشاعر كانوا يعقدون حلقات الجدل والفلسفة(١٠٥) ، فان هذا ينقضه ما ذكره أيضا : أنه قد فارق أهله حدثا(١٠٦) ، فكيف يأتى له أن يتصل بتلك الحلقات الفلسفية وهو حدث لم يتسع لها عقله وتفكيره ؟

واما التعقيد في الشعر فليس للفلسفة أثر فيه . وقد وجدوا التعقيد في كثير من شعر العرب سواء كان تعقيدا لفظيا أو تعقيدا معنويا ، ولم يؤثر عن ناقد أنه أسند هذا التعقيد الى فلسفة ، أو أشار الى انه صادر عن تفكير يرتفع عن مستوى الرجل العادي ، وانما التفكير في المعاني ان تبلغ ذروة الروعة في التصوير وتبدو فيها الملامح الجمالية ، لا ان تنحط الى درك سوء التعبير ، وليست ملاحظة النقاد : أن في شعر أبي تمام ما لايفهم انهم لم يفهموه، فانهم قد فهموه ولم يغب عنهم ما كان يريد ان يقوله ، ولكنهم يقصدون

---

(١٠٥) المؤلف : ٢٩

(١٠٦) المؤلف : ١١ و ١٣

انه خالف سنة القول المأثورة عن العرب في فقه لغتهم ، وانه يغـرب في العبارة اغرابا يبعدها عن التناول الا بالتأمل .

فأما جريانه على اسلوب مخالف للسنن المأثورة عن العرب في بيانهم فذلك لافراطه في الصنعة ، وعندى انها للبيئة التي تخالف البيئة الجاهلية الامية ، ولان له من العبقرية ما يمكن ان يكون مستقلا بها في التشخيص والتسلسل المنطقي وانتزاع الامثال من المفاهيم العامة بتوليد عميق ، فهم ان لم يرضوا ان يستعيروا للمنى أعناقا مثلا وللموعد ظهرا بحجة انه غـير مأثور في فقه لغة العرب ، فاننا نجد فيه أمثلة لتجديد حجيرات اللغـة وتحويل بيانها الى ناحية تمثل عبقريته فنستسيغ منه مالم يستسيغوه مـن نحو قوله :

فلويت بالمعروف أعنـاق المنـى ... وحطمت بالانجاز ظهر الموعد

ولكني لا أرى ما يراه المؤلف بأنه من تأثير الفلسفة اليونانيـة او التفكير المصطبغ بها ، وكل ما هنالك انه ذو موهبة تمكن من شحذهـا واستغلالها فكونت منه شاعرا ككل شاعر كبير ، وهذا ما دعاهم الى القول: انه حكيم اكثر منه شاعرا ، لان الشاعر تظهر عبقريته في موسيقاه وان لم تعمق معانيه ، فيكون شعره غنائيا لا كشعر من يهتم بالصنعة التي يبـدو التكلف في تأليف جملها واضحا جليا ، فتخفت الرنة الغنائية في موسيقاه البيانية ، وهذا ما ينقلنا الى الناحية المتعلقة باغراب العبارة التي تبعد القول عن التناول بدون تأمل .

وليس هذا من أساليب الشعر في شيء ، اذ أن الشاعر هو لسان الامة المعبر عما تحسه وتشعر به ، فاذا بعد خطابه عن المدارك لم يعد جديـرا بحمل رسالته الى امته ، وليس شاعرنا قد نزل به القول الى البعد عن الامة في خطابها أو تنافرت موسيقاه كهذا الشعر المستحدث حديثا واسموه بالشعر (الرمزي) ، غير ان شاعرنا أبا تمام يتكلف أحيانا في صوغ المعاني فيسوقه

ذلك الى الاغراب في بيانه ، ويجعل شعره مفهوما من حيث كونه كلاما وغير مفهوم من حيث خروجه عن أساليب البيان الشعري ، فيكون كذلك الاعرابي وقد سمع قصيدته في خالد الشيباني :

طلل الجميع لقد عفوت حميـــدا   وكفى على حزني بذاك شـــهيدا

فقال : ان في هذه القصيدة كلاما لا أفهمه وكلاما أفهمه فأما ان يكون غير شاعر أو يكون هو اشعر الناس ، فهذا الاعرابي جرى في فهمه للشعر على الاساليب البيانية المتواضع عليها ، فان صادفه أسلوب لا يعهده اتهـم الاسلوب فقط ولم يتهم الكلام ، وعـــدم فهمه له انه جرى على أسـلوب جديد لم يكن ذا أثر يعهده .

أما الذى اتهمه بانه يقول ما لايفهم فهو ابو العميثل كاتب عبدالله بن طاهر ، وهو قوله :

هن عوادي يوسف وصواحبـــه   فعـزما فقد ما أدرك النجح طالبه

ولكن ابا العميثل غير رأيه في القصيدة لما سمعها كلها ووجدها من الكلام العالى ، لاسيما قوله فيها :

وركب كأطراف الاسنة عرســوا   على مثلها والليل تدجو غياهبـــه
لامر عليهم ان تتم صـــــدوره   وليس عليهم ان تتم عواقبـــــه

اما مطلع هذه القصيدة فجدير لعمري ان يقال فيه ذلك اذ لم يكن سالما مما يخل بفصاحته ، وانه ليخلو من الموسيقية الجذابة لما فيه من الثقل على اللسان ، واول ما لحقه من العلل ما يسمى (بالخرم) ، وهو حـذف المتحرك الاول من تفعيلة الصدر (فعولن) فنقله الى (فعلن) ، ويجرى مثل هذا كثيرا في الشعر الجاهلى الى شعر الصدر الاول الاسلامي ، وهي الطريقة التي جرى عليها العرب الاولون في شعرهم ، وهنا يقول ابـن

رشيق[١٠٧] وأبو تمام اولى ان يتبع طريقة العرب ، واظنه يريد انه يفعل ذلك لعربيته الصميمة ولذلك كان يتزيا بزي الاعراب في أول أمره ، ولانه صادق اللهجة في لغته وبيانه •

وقد اراد بعض الرواة ان يزيل علة (الخرم) من مطلع ابي تمام فرواه :

أهن عوادي يوسف وصواحبه فعزما فقدما ادرك النجح طالبه

فوضع همزة الاستفهام عوض المتحرك المحذوف من التفعيلة التي ذكرتها •

ومن مآخذ هذا البيت ان اللسان ربما تلجلج في تلاوته بتنافر الحروف في قوله :

••• ••• ••• ••• فعزما فقدما أدرك النجح طالبه

هذا ما كان من تركيبه اللفظي وثقله على اللسان ، وأما معناه فليس بالبدع المنفرد ، فقد تعاوره الشعراء وولده بعضهم من بعض • فكان اولى منه قول الحطيئة ، وان لم يسلم من (الخرم) المذكور :

آثرت ادلاجي على ليل حرة هضيم الحشا حسانة المتجرد

يريد : انها تلومه لكثرة سفره وعدم اقامته عندها ، فيريد أبو تمام انها من تلك النساء اللواتي كن يغرين النبي يوسف عليه السلام لولا عناية الله ببرهانه عليه ، فكانت صاحبته تغريه ان يقيم عندها ولا يطلب النجح بهذا السفر ، ولذلك قال لها :

أعاذلتي ما اخشن الليل مركبا واخشن منه في الملمات راكبه
ذريني واهوال الزمان افانها فأهواله العظمى تليها رغائبه
ألم تعلمي ان الزماع على السرى اخو النجح عند الحادثات وصاحبه

---

(١٠٧) العمدة : ٩٢/١

فكأنها تذكره باهوال الليالي وخطر الساري فيها ، فيطلب منها ان تذكر بأسه في تلقى الحادثات ليتلقى الرغائب والنجاح التي لاتتم الا في خوض الحوادث والاهوال •

فلم يظهر في قوله غير ان صاحبته عنفته على ان يطوح بنفسه في البلاد، فجعلها من صواحب يوسف ، لانها حاولت اغراءه كما حاولت امرأة العزيز أغراء يوسف ، فاستمسك شاعرنا بالحزم والعزم كما استعصم يوسف بعصمة النبوة ، وهذا وصف ضمني للانوثة في صاحبته التي كادت تصده عن سبيل النجاح لولا ان رجولته انهضت عزمه لادراك مطالبه ، وهذا المعنى الغامض الذي لا يظهر الا بالتحليل اللفظي المستفاد من (مفهوم المخالفة) ، كما يعبر الفقهاء ، هو ما يعده النقاد غموضا في شعر أبي تمام ، وهو نفسه الذي جعل المؤلف يذهب الى ان هذا الغموض سر الادب اليوناني •

وكان الحطيئة قد وصف صاحبته بجمالها في انها حرة ، وانها حسانة المتجرد ، ولكنه بالرغم من ذلك آثر ادلاجه في سبيل مراميه •

وكان عروة بن الورد أوضح من أبي تمام في قوله لصاحبته

ذريني للغنى أسعى فأني ... رأيت الناس شرهم الفقير

وقد توسع ابو تمام في هذا المعنى فابدع فيه بما قاله للمعتصم حين انتصر للمضامين في عمورية وافتتحها :

عداك حر الثغور المستضامة من ... برد الثغور ومن سلسالها الشنب

فجمع بين معناه في مطلعه وبين معنى الحطيئة ، ولكنه نظر الى معنى عروة بن الورد •

ولعل امرأ القيس هو السابق في هذا المضمار بقوله حينما صاحبه عمرو بن قميئة الى بلاد الروم :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك انما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وكأن هذا المعنى أصبح موضوعا لابي تمام ، حتى استرسل به في قوله من قصيدته التي تعد بدعا في تسلسل معانيها بأسلوبه الحكيم :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد	وعاد قتادا عندها كل مرقد
وأنقذها من غمرة الموت انه	صدود فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الاشفاق دمعا موردا	من الدم يجري فوق خد مورد
هي الشمس يغنيها تودد وجهها	الى كل من لاقت وان لم تودد
ولكنني لم أحو وفرا مجمعا	ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تحبني الايام نوما مسكنا	ألذ به الا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مخلق	لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة	الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

فالبيت الذى عيب على أبي تمام اولى بان يعاب لما ذكرته من الوجوه التى اخرجته عن الفصاحة والبلاغة وما لحقه من العلل العروضية ، ولعل محاولة الشاعر أن يتوسع في التوليد هي التي جعلته غير مفهوم لابي العميثل، ولكن المؤلف جعله حكما للنقاد كلهم مع ان النقاد لم يعيبوا فيه غير (الخرم)، ولكن ابن رشيق قال[١٠٨] : ان هذا من مذاهب العرب وأبو تمام اولى به، كما اشرت الى ذلك فيما سبق •

ثم لاموا ابا تمام في اعتراض ابي العميثل عليه بأنه لو جاء بغير هذا المطلع القلق بمطلع من المطالع الجذابة المحببة أدبيا لكان اولى ، لان مطالع القصيدة هي اول ما يسمعه المخاطب من الشاعر فيجب ان تكون أجمل شيء لتدل على جمال القصيدة ولتجذب النفوس اليها ، فجمال القصائد بمطالعها ، ولهذا بحث كبير من مباحث البلاغة في ذكر براعة الاستهلال وقد تقدم البحترى في شعره بحسن مطالعه •

---

(١٠٨) العمدة : ٩٢/١

ومما يتندرون به في المطالع ، وفي التنبيه على اجتناب ما يدعو الى اية هنة فيها : ان ابا تمام أنشد في أبي دلف العجلي :

على مثلها من اربع وملاعب

فقال احد الحاضرين : لعنة الله وملائكته والناس اجمعين ، فتبسم ابو تمام واستمر في انشاده :

أذيلت مصونات الدموع السواكب

وكان من أشد ما لحق شاعرا في ذلك قول جرير في عبدالملك بن مروان :

أتصحو ؟ بل فؤادك غير صاح

فقال عبدالملك : بل فؤادك يا ابن (الغافلة) ولكن جريرا استمر في انشاده :

عشية هم صحبك بالرواح

وكانت القصيدة عالية في بيانها ، وجاء فيها قوله :

سأشكر ان رددت الي ريشي وانبت القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وهذا ونحوه مما يستشهد به على التزام مقتضى الحال واجتناب الغفلة والتباعد عن ارتكاب الهنات •

الحكمة في شعر أبي تمام

بعد ان جعل المؤلف لابي تمام تفكيرا جديدا في الشعر العربي ،وولد له حكمة خاصة بطبقة ممتازة ، تراجع فجأة الى انكار كل أثر للحكمة في شعره ، وبين أن جميع أقواله المستمدة منها « كثيرة الصنعة كثيرة التكلف بعيدةعن اسس المثل السائر »فحكمته «لاتدعى حكمة»عندالمؤلف »ولكنهامجاراة

لزمن شهد الثقافات المختلفة .. فاراد ان يقيد معرفته لها بشعره ، فكان يضربها أمثالا ، ولكنه لم يصب دائما » غير ان « احسن أقواله في الحكم واختراعه في المعنى » ما كان مكتسبا « من اختباره الخاص لا من الثقافات الشائعة »(١٠٩) .

وهكذا استدرج البحث مؤلفه الى نقض ما كان بناه وعدل عما كان ذكره من اصطباغ تفكير الشاعر بالثقافة اليونانية وظهوره بالمظهر الغريب البعيد عن المألوف .

ولكنه اراد ان يحتفظ بشيء من رأيه في تأثير الفلسفة الاغريقية في شعره ليدعم القول بيونانيته فجعل ما أنتجه هذا الاطلاع الواسع على فلسفة يونان مقتصرا على توجيه لسانه في بناء الجمل وتراكيب الكلام وفي أنواع المجازات والكنايات والاستعارات ، وما الى هذه الاساليب التي يتوقف الابداع فيها على مدى المعرفة بفقه اللغة واشتقاقاتها ونحوها وصرفها وتقويم اللسان على اساليبها الخاصة ، فاحتفاظ المؤلف بهذا التعليل لا يصح مع قوله(١١٠) : ان ثقافة أبي تمام أثرت في صبغ تفكيره بصبغة تظهره غريبا ، ومن المعلوم ان غرابة التفكير لاتدل عليها أساليب اللسان الالية ، وانما تعرف بدقة التصوير للمعاني المنتزعة من اسرار الحياة ، وربطها بمنطق الكون ، واستكشاف العلاقة الحكيمة بينها وبين الصور الذهنية ، كما يلاحظ ذلك في آداب الامم وفلسفتها ، وأولى للناشيء في المجتمعات الفلسفية أن نكون أفكاره وليدتها ، وجدير بهذا الشكل من الثقافة ان يتجه صاحبها الى فلسفة لها حكمها ومنطقها في الادب او الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو التاريخ أو الطبيعة أو الدين أو الاخلاق ، ولا تقتصر على مادة لغوية سبيل العربية أجدر وأجدى بها وأوضح منهاجا ، هذا مع ان المؤلف يتكلم في بحثه هذا

---

(١٠٩) المؤلف : ٩٧ ـ ٩٨
(١١٠) المؤلف : ٣٧

عن حكمة أبي تمام لا عن أسلوبه الفني ، فان لهذا شكلا آخر من القول •

وأما ما ذكره من أن « أحسن أقواله في الحكم ، ما كان مكتسبا من اختباره الخاص » فهذا شأن كل الشعراء صاعدهم ونازلهم ولا ينفرد أبو تمام وحده بهذا ، ولا يجوز ان يعد ذلك من خصائصه ، اذ الاختبارات الخاصة أهم مادة ينتزع بتوليدها الشعراء معانيهم سواء في الحكم أو في غيرها ، وباختلاف تلك الاختبارات واختلاف الاستعداد الشخصي للاستفادة منها وطريقة التوجيه يأخذ الشعراء منازلهم ، وتحصل للشعر درجته من الروعة •

وأما أثر الفلسفة في الاساليب اللسانية فلا يعدو لغة العلم ، وليست له صورة فنية في الادب ، وقد علل العلامة احمد امين رحمه الله سبب ذلك[١١١] بان العلوم تستمد من حقيقة عالمية لأنها نتاج العقل الذى هو قدر مشترك بين الافراد والامم ، وان المنطق الذي يضبطها تسيغه عقول الناس جميعا ، ولكن الادب غير العلم فهو قومي بحت يعبر عن المشاعر والاحساسات القومية ، بلغة العواطف التي ليس لها منطق يضبطها فهو ظل الحياة الاجتماعية ، ولما كان لكل أمة حياة اجتماعية فقد استحال على العرب أن يتذوقوا الادب اليوناني أو الروماني أو الهندى أو الفارسى أو غيره • كما تذوقوا الفلسفة الاجنبية ، وهذا ما يبصرنا بالعلة التي صرفت العرب الى ترجمة العلوم الاجنبية دون آدابها ، وانهم لم يعمدوا الى ادخال بعض الفنون الادبية في اساليبهم كالشعر القصصى والشعر التمثيلى •

ولو كان ابو تمام غير غريب عن فن الادب اليوناني لتذوق أسلوبه قبل ان يتذوق الاسلوب العربي فيمثل صورته الفنية بشعره ، ولم يقتصر من الشعر القصصى الذى تسعه اللغات الاجنبية بالملاحم أو بالاشارات الخاطفة الى مواطن العز من تاريخ العرب بالاسلوب الحكيم الذى تمتاز به الطريقة

---

(١١١) ضحى الاسلام : ١/٢٨٠

العربية وتسعه حدود لغتها التي تعتبر الايجاز من أجمل ما يتحلى به البيان فالايجاز ارفع ما تمتاز به الغربية ، وهو السر في اقتصار العرب على تسجيل الوقائع بالاشارة اليها ، والعربي يتحدث في بيانه بعبارات موجزة يرسلها احكاما مقررة فلا يحيطها بشرح او تحليل أو تعليل لان الذهنية العربية تتلقى القول الخاطف بدون حاجة الى شرحه ، بخلاف لغات الامم التي تخلو من الايجاز ، فالاطناب عند الامم هو الذى وسع لغتهم الى تحمل القصص والتمثيل ، وايجاز العرب ورهافة احساسهم هي التي جعلت ادب هذه الامة ملاحم وضرب امثال ، وبهذا يتبين الفرق بين شعر ابن الرومي الذي لايدع صغيرة من شرح معانيه او كبيرة الا احصاها فكان يتناول الجزئيات في شعره بخلاف شعراء العرب الذين لايعنون بغير كليات الموضوع •

فيتبين من هذا ان ابا تمام يأخذ من الحركة الادبية ما يتذوقه العربي مما هو جار على أساليب اللغة العربية القانعة بقواعدها المقررة ، فاذا تناول من التاريخ حادثة أشار اليها اشارة لايتعداها كما اشار الى حرب ذىقار في قوله لابي دلف العجلي من بني شيبان الذين قاموا بهذه الحرب فقال :

اذا افتخرت يوما تميم بقوسها ... وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذى قار أمالت سيوفكم ... عروشالذين استرهنوا قوسحاجب

فلقد أشار الى أن حاجب بن زرارة التميمي الذي رهن قوسه لدى ملك الفرس على عدم عيث قومه في البلاد ووفي له بهذا الرهن قد انتصر العرب عليهم في ذيقار بفضل سيوف بني شيبان القائمين بهذه الحرب •

واما شعر أبي تمام الحكمي فقد سار فيه على طريقة ضرب الامثال الذى هو اسلوب عربي مما يبدو واضحا في خطب العرب وشعرهم ، فهو في حكمته الجارية مجرى الامثال شاعر عربي لايعرق في غير العربية •

الأدب الخـاص

كان مما قرره المؤلف في حكمة أبي تمام انها مستمـدة من ثقافتـــه اليونانية ، ثم رأى ان هذه الثقافة ليس لها أثر في حكمته ، وكل ما كان من أثر فلا يعدو الالفاظ والتراكيب دون الخيال والتفكير ٠

ويرى بين هذا وذاك ان له حكمة ممتازة لايتناولها الرجل العادي ، ولا يفهمها الا طبقات خاصة من النحاة او الفقهاء او الادباء أو الفلاسفة ٠

وينثنى بعد هذا الى انكار الحكمة في شعره ، ويجعلها بعيدة عن أسس المثل السائر ، وانها لاينبغي ان تدعى حكمة ٠

ثم يعود القهقرى فيؤيد رأيه بوجود تلك الحكمة الممتازة التي لايفهمها الا الخاصة ، ويورد لها أمثلة من شعره ، ويخرج تلك الامثلة تخريجا بعيدا عن واقعها لتكون قريبة من رأيه ، ويلقي عليها تعليلات تشعر بأنها غيرمفهومة حقا ، وان الشاعر قيد بها معرفته لثقافات عصره ٠

والحقيقة ان هذه الامثلة ـ وان تكن قاصرة على نفسها غير مطردة في الاستدلال على ما نظمه من الشعر ـ ليست بالشواهد التى تنهض بها هـــذه الدعوى ، ولو أننا توسعنا بامثالها في الاستدلال لجعلنا لكل شاعر نصيبا من هذا الادب الخاص ٠

اورد على دعواه هذه مثالين من شعر ابيتمام ، المثـــال الاول قوله في وصف الخمرة :

خرقاء يلعب بالعقول حبابهـــا　　　كتلاعب الافعـال بالاســـماء

فقال : انه من شعره الذي لا يفهمه الا النحاة لانه تضمن اشارة نحوية

لا يدرك مغزاها غير علماء النحو الممارسين لقواعده ، والمثال الثاني قولـــه في العطاء :

الـود للقربى ، ولـكن عرفـــه للابعد الاوطان دون الاقـــرب

وذكر انه مما يختص بفهمه الفقهاء لانه يتضمن اشـــارة الى آي من القرآن الكريم[(١١٢)] ، ودلت اشارته الى أربع آيات فيها كلمة (القربى)من الذكر الحكيم ، كقوله تعالى : (قل لا اسألـكم عليه أجـرا الا المـودة في القربى) ..

ويلاحظ هنا انه في معرض الكلام عن حكمة ابي تمام الخاصة بالطبقات المثقفة ، فتوسع عند الرجل نطاق بحثه الى اعتبار كل تشبيه في الشعر حكمة، فكأن الحكمة هي مجرد الاستعارات والكنايات والمجازات ، بغض النظر عن المعاني الحكيمة القابلة للتطبيق على الاخلاق والعادات ، او المتبعة في تكوين الاخلاق والعادات .

وارى الدكتور يستبهم عليه التفريق بين الحكم والامثـال ، فيقـول ان الحكمة في شعر أبي تمام بعيدة عن المثل السائر ، ولا يخفى ان الاقوال الحكيمة شيء آخر لايصدق على الامثال السائرة كلها .

ولنعد الى البيتين مما عده الدكتور من الشعر الخاص بالطبقات المثقفـة فلا يفهمه احد غير رجالها ، وفي الحقيقة أنهما مفهومان بالبداهة لكل قارىء وان كان شخصا عاديا ، فقول أبي تمام :

خرقاء يلعب بالعقول حبابهـــا كتلاعب الافعـــال بالاســـماء

قول واضح لكل من يسمعه ، فلابد ان يفهم السامع ان الشاعر يصف الخمرة وما تفعله بشاربها ، ويفهم ان لها سورة تسلب التصرف المتزن والارادة الحكيمة ، وهذا مفهوم عند العامة كما هو مفهوم لدى الخاصة ، فلو قيل :

---

(١١٢) المؤلف : ٩٧

ان الخمرة تلعب بالعقول كما تلعب الافعال بالاسماء كان ذلك مفهوما بجملته دون ان يسبقه علم بالنحو وقواعده • ولا يتوقف الفهم لهذا المعنى على معرفة العلاقة بين العامل والمعمول واختلاف النحاة فيهما والاطلاع على آراء البصريين والكوفيين ومسائل الخلاف بين المصريين ، او ما قرره الاخفش والمبرد والكسائي او ما دونه سيبويه او ما ينحو نحوه ابن هشام وابن مالك وابن عقيل أو ما رواه ثعلب أو ابن الاعرابي ، أفكل هذا العلم ومقررات هؤلاء العلماء مما يحتاجه السامع ليفهم : ان الخمرة تلعب بالعقول كما تلعب الافعال بالاسماء ، والا عد من الصم البكم العمي فهو لا يعقل ما يسمعه ، وكأن القرينة لاتدل على وجه الشبه ما لم يسبقها علم بالمعنى الاصطلاحي في المشبه به •

هذا ماكان من أمر هذا البيت ، واما البيت الاخر فهو قول ابي تمام :

الود للقربى ، ولكن عرفه ... للابعد الاوطان دون الاقرب

فذكر الدكتور المؤلف : ان هذا البيت غير مفهوم الا للفقهاء والمفسرين لان كلمة (القربى) لايمكن أن تدور في خلد الانسان العادي الا ان يكون فقيها مطلعا على اسرار الآيات القرآنية واصول تفسيرها وتأويلها ومطلعا على حكمة التشريع وتاريخه وله معرفة حقة بأصول الفقه ، ومعرفة بالاستنباط للاحكام الفقهية من ادلتها الشرعية ، ومحيطا بما ذكره علماء الاثر وما قرره رجال القياس ، عارفا بسرائر اعجاز القرآن الكريم ملما بشواهده البيانية ، مدركا لآراء السلف والخلف من مجتهدي الامة •• كل اولئك ليفهم معنى ان الود لايكون الا للقربى ، وكأن من المحال ان تمر كلمة قرآنية بدون استعداد واسع لعلوم الدين العقلية والنقلية، فكأن ورود كلمة ترد بالضرورة في الاقوال شبيهة بامثالها من القرآن الكريم يدل على ان الشاعر فقيه لاينظم الا للفقهاء ، وان شاعرا غير فقيه يستحيل عليه ان يخطر (لغة القرآن) في نظمه ، فكأنه لاينظم في (لغة القرآن) •

. . وبهذه المناسبة الطريفة اذكر : اني كنت ــ ورفقة لى ــ تنفكه بمجالسة شيخ طاعن في السن ، تلاشى في غبار السنين وقاره ، وخفت بنوائب الايام أحلامه ، فرجح الخرف على رجاجته ، فكان يظن في نفسه انه أشعر الشعراء وأحكم الفلاسفة وأعلم العلماء ، وكنا نتصنع الايمان بظنونه لنستدرجه الى تقبل نكاتنا اللاذعة ، فيتخذها مما يتبسط به المجبون ، وقد يسألنا ــ متحديا ــ عن بعض المفردات اللغوية التي تحرفها معرفته الخاصة ويصحفها فهمه القاصر عن أصل مدلولها ومنطوقها ، فنزيدها نحن غرابة بتعمدنا للجواب الطريف، فنتندر بتجهيله ايانا ونضحك لضحكه منا ، وربما نلح في التندر به فيخرج عن حلمه فنسمع هجاءه فينا ، وكان لايخرج عن الهجاء في القول ، فيرسل كلاما غير متزن ولا مفهوم ولا معرب وشعرا لا اثر فيه لتفاعيل العروض ولا لعلم النحو فمن قوله فينا ــ رحمه الله ــ :

قاتلكم الله ، وقاتل خلتكم　　　كلما كبر المؤذن في المنارا

فقلنا له حينئذ بدعابة انك سرقت كلامك هذا من الآية (قاتلهم الله ..) فتميز من الغيظ ، وعقد الغضب لسانه ، والقى علينا نظرا شزرا ، وصوبه الينا وصعده فينا ، واراد ان يقول شيئا ولكن ارتجاف شفتيه افقده ماكان يريد ان يقوله ، فآثر ذهب السكوت على فضة الكلام ، وحاول اصطناع الهدوء ، وتكلف الابتسام فافتر عن شدقين خدت حولهما الايام أخدودها وخطت خطوطها فبرز وراءهما نابان كانا بقية ما أسأره مر السنين من اسنانه وظهرا أطول مما كانا لقيامهما منفردين على الطلل المحيل .

وبعد ان سكت عنه الغضب ، أقسم باغلظ الايمان واحرجها : أنه لم يقرأ القرآن عمره ..؟! ،ثم اردف قائلا بلهجة المجرب الحازم الحكيم ، : واذا صح ادعاؤكم ان هذه الجملة واردة في الآية الا يجوز ان يحمل ذلك على توارد الخواطر ..؟! وقد قيل : قد يقع الخاطر على الخاطر .. فشغلناه باعتذارنا لئلا نزداد اثما باكماله العبارة .

اوردت ذلك مستغفرا ربي مما فيه من عبث لايليق بواجب الادب لمقام التنزيل ، ولكن التشبيه على موضوعنا الانف الذكر ربما يخفف من الاستهجان شيئا والله غفار لمن تاب •

فهل يريد الدكتور : ان ابا تمام اخطر الآية في فكره فنظم قوله :

الود للقـــربى ، ولكن عـرفـه للابعد الاوطان دون الاقـــرب

وهل ينتظر من هذا الشاعر تنصلا كذلك التنصل الهزيل الذى صرح به ذيالك الشيخ الممرور ودل على ضعف عقيدته ليؤيد انفراده بكلمة تـرد بالضرورة في كل قول ؟!

ان ابا تمام لم ينظم معنى بدعا في المعاني وليس غريبا على الاخلاق العامة، ولا هو مما تفرد بفهمه علماء الفقه او رجال التفسير فهو من الاخلاق المفهومة للرأي الاجتماعي العام يتلقاه كل انسان بتربيته الدينية أو عاداته الاجتماعية فهو قرار اجتماعي عرفته الاجيال في الاخلاق الفاضلة • واحلته الاديان مـن العواطف في محل تتحقق به الضمانات الاجتماعية •

ثم ان الشاعر غير متهم بالغموض في هذا البيت ، ولا في ذلك البيـت الذى سبق قولنا فيه ، ولا في كل بيت جاء على نحوهما • والشعر من هــذا القبيل لايجعل اشكالا في فهمه ، ولا يخص طبقة دون طبقة ، بل هو جار على الطريقة المعروفة عن أبي تمام ، وهي الصناعة التى عيب على افراطه فيها •

مذهب أبي تمام ومنزلته الفنية

لا اريد أن أضع هنا دراسة للتعرف بأدب أبي تمام ومذهبه الفني ، فان لي في ذلك دراسة شاملة لقصة أدب هذا الشاعر وحياته ، واني اتغفل الظروف الشاغلة لاخراجها الى قرائها ، والمشيئة لله •

اما هنا فلا يعدو البحث طريقتي في هذه الرسالة من الاستدراك على ما

جاء في رسالة الدكتور عمر فروخ ، والتعليق على رأيه ، وعلى ما حكاه من نصوص النقاد والمؤرخين ورجال الادب ، والاخذ بيد من اراد الرأي الاصيل الى الناحية الصائبة •

صناعة الشاعر

قال ابو الفرج في أغانيه[١١٣] : « ان لابي تمام مذهبا في المطابق هو كالسابق فيه جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله •• فان له فضل الاكثار فيه » ، وهذه العبارة لاتدل على تعليق الدكتور عليها بقوله : « ان أبا الفرج قد أكد فضل أبي تمام في اجادة باب التصنيع »[١١٤] : اذ أن أبا الفرج قد تحفظ بقوله : « هو كالسابق فيه جميع الشعراء » ، والسبق هنا في فضل الاكثار لا في فضل الاجادة ، فقد علل ذلك بقوله : « فان له فضل الاكثار فيه » • فاشار الى أن الشاعر أفرط في التصنيع افراطا سبق فيه جميع الشعراء ، أو كأنه سبقهم فيه • ولا أرى أن أبا الفرج يريد التفضيل المستحسن في عبارته هذه ، بل اراد التفضيل في الافراط بملاحظة الوضع اللغوى فان الفضل في اللغة بمعنى الزيادة ، فقد يعد الفضل فيما يزيد من مستحسن او معيب ، ومن هنا اصطلح النحاة على اطلاق (اسم التفضيل) في نحو الاكرم والاعز والاحسن والاكثر والاكبر ، وعلى ضدها من نحو الالام والاذل والاقبح والاقل والاصغر ، ويعرفونه بان شيئين اختصا في صفة ولكن أحدهما يزيد فيها على الآخر •

ولم ينكر الآمدي على ابى الفرج قوله كما توهم الدكتور ، بل عد « استكثار أبي تمام من الطباق وافراطه فيه من اعظم ذنوبه وأكبر عيوبه[١١٥] » ، فاعترف بذلك الفضل الذى ذكره ابو الفرج من استكثار

---

(١١٣) الاغاني ١٥/١٩٦

(١١٤) المؤلف : ٥٢

(١١٥) الموازنة : ٨ طبعة بيروت

الشاعر للطباق وافراطه فيه ، ولكنه أنكر أن يكون مجيدا فيه •

ولكن ابن رشيق وقف برأي منفرد بين ذينك الرأيين ، فلم يؤيد ابا الفرج في افراط الشاعر في هذا الباب ، ولم يذهب مذهب الآمدي في انكار الاجادة على ابي تمام ، بل ذهب الى استحسان ما صنعه الشاعر ، ويفهم ذلك من قوله[١١٦] : ان ابا تمام « كان يجيد باب التصنيع » ، وليت البحث لم يستدرج الدكتور ، فيلزم ان يتحفظ في القول كيلا تنفصم عرى تأليفه ، فقد ذكر[١١٧] : ان ابا تمام « كان اول من حلى الشعر العربي بالصناعة العربية المقصودة » • فنقض بهذا ما كان نقله[١١٨] عن الموازنة قولهم[١١٩] في الصناعة : « ان اول من قصدها وافسد بها الشعر صريع الغواني مسلم بن الوليد » ، ولم ينكر هذا القول على أهله ليتسق مع حكمه الاول مع أنه علل هذا بالنقل انهم بدأوا « يفطنون لعذوبة الصناعة وطلاوتها لجدتها »[١٢٠] ، ولا اعلم كيف يستعذبون هذه الصناعة ثم يعيبون صريع الغواني بانه أول من أفسد بها الشعر •

وقد أسرع الدكتور بعد هذا الى الحكم بين ابي تمام في انه اول من حلى الشعر العربي بهذه الصناعة وبين مسلم بن الوليد في اقراره حكمهم عليه بانه اول من أفسد بها الشعر ، أفهذا حكم على نفس الصناعة أو على ما للشاعرين فيها من أثر ••؟

ان الدكتور لم ير في هذه الصناعة رأيا ، ولكنه قارن بين الشاعرين بأن هذا أجاد حتى عاد عمله حلية للشعر العربي ، وان ذاك قد أساء حتى صار عمله إفسادا للشعر العربي • واصبحت الصناعة حلية من شاعر وفسادا من شاعر آخر مساو له في المنزلة البيانية •!

---

(١١٦) العمدة ١/٢٢٢ و ٢٢٥ و ٢/٣٢.

(١١٧) المؤلف ٤٠

(١١٨) المؤلف : ٥١

(١١٩) الموازنة : ٣ طبعة بيروت

(١٢٠) المؤلف : ٥١

ان مسلما ابن الوليد من الشعراء الذين عني الادب العربي وتاريخه بآثارهم الخالدة من أمثال بشار وأبي نواس وأضرابهما ، والحكم عليه يتطلب عملا وجهدا ليتركز على معرفة شاملة ، ولا يجوز ارتجال الاحكام في أدبة وان لم يكن بحثا مباشرا لان ذكره هنا اقتضى رأيا يتطلب فيه تحليل أدبه وتاريخه كما يريد العلم والفن •

حزونة الالفاظ

علل المؤلف ما ورد عن النقاد بأن في شعر أبي تمام ما هو معقد وما هو مقتسر ومأخوذ بعنف ـ علل هذا ـ بما يذهب اليه من اختلاف البيئة والاستعداد الفكري وطبيعة العنصر • ثم جعل رأى النقاد هذا صادرا عن قصور فهمهم عن دقة معانيه ، فيرى أن أبا هلال العسكرى قصير النظر في الامور[١٢١] لان المؤلف جعله يقول : « كان أبو تمام يتتبع وحشى الكلام ويدخله في شعره »[١٢٢] ، هذا بعد ان رأى المقدسي منصفا[١٢٣] في نقله[١٢٤] قول ابن رشيق : « فأما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه »[١٢٥] •

فماذا اسند الى العسكرى غير هذا حتى يتهمه بقصر النظر ؟ وما هو الفرق بين ان يكون متتبعا لوحشى الكلام ، وان يكون ذاهبا الى حزونة اللفظ وكلاهما وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وشدة وقعها على السمع ، وكلاهما من عيوب الفصاحة ، ولكنها طبيعة في النفوس تميل الى التلطيف في

---

(١٢١) المؤلف : ٣٩

(١٢٢) لا يوجد هذا النص في الصناعتين ولعل المؤلف من تساهله اعتمد على متساهل آخر هو انيس المقدسى مؤلف امراء الشعر فاخترع هذا القول اختراعا وأشار الى أنه في كتاب الصناعتين •

(١٢٣) المؤلف: ٣٩

(١٢٤) امراء الشعر ١٩٣ ـ ١٩٤

(١٢٥) العمدة ١/٨٤ ـ ٨٥

العبارات ، وان بقيت المعاني على سماجتها ، فالتعبير بحزونة اللفظ أعـــدل انصافا عند المصنف من التعبير بوحشي الكلام ، ولقد ضرب أمير الشعراء أحمد شوقي على هذه النغمة للطبيعة النفسية في قوله :

وحور قول الناس : مولى وعبده   الى قولهم : مســـتأجر وأجـير

ولكن الواقع يقرر ان عبارة ابن رشيق التي استلطفها الدكتور هـي عين ما أسنده المؤلف الى العسكري في العبارة التي استهجنها •

ان ابا تمام كان يتتبع وحشي الكلام كما قيل ، اى انه كان يذهب الى حزونة الالفاظ كما قال ابن رشيق ، وليس في هذا دلالة على اختـــلاف في التفكير والبيئة والعنصر ، فان هذا القول ينطبق على شعر الاعراب وأهـــل البوادى ، وكان شعراء العباسيين عهدئذ يعمدون الى محاكاة الاعراب لينفق ادبهم عند الرواة واللغويين كابن الاعرابي الذى يعد أشد الرواة تحـــريا للغـريب •

على أن هذا لايزيل روعة الشعر ولا يذهب برونقه ولا تخفت موسيقاه اذا كان صادرا عن شاعر كبير ، ورب كلمة وحشية استطاع عبقرى البيـان ان يتألفها فيجعل منها كلاما رائعا ، وفي القرآن الكريم بعض المفردات التـي ذكر علماء البلاغة انها ليست بذات فصاحة في نفسها ، ولكنها حين تألفت في جملة التعبير ظهر لها من روعة البيان ما تحدى ارباب الفصاحة ، وأعجـــز أساطين البلاغة ، مثل كلمة (ضيزى) فانها من الكلمات التي بعدت عـــن الفصاحة ولكنها لما صارت في الآية الكريمة (ان هي الا قسمة ضيزى) بدت فيها روعة تحدت الفصحاء واعجزت البلغاء وكثير من المفردات مثلها •

واما فهم الدكتور من عبارة المقدسي عن ابي هلال العسكري[١٢٦] ، ان أبا تمام بعد ان ينظم القصيد « يبدل كلامها السهل المألوف بالغـــريب

---

(١٢٦) الغريب ان أبا هلال لم يذكر هذه العبارة في كتابه الصناعتين ، وان اشـــارة المؤلف تدل على انها عبارة المقدسى في كتابه امراء الشعر اختلقها واستشهد بها وهذا هـو التدليس بعينه ولعل هذه السبيل هي من اساليب البحث العلمى عند هؤلاء •

الوحشي »[١٢٧] فليس بصحيح ، ولم يرده العسكري او غيره بل ان الذي ارادوه : ان أبا تمام يتتبع الغريب ويستقرىء لغة الاعراب طيلة دراسته الادبية حتى استحكمت ملكته على هذا النحو من التعبير وجرى ذوقه على مجراه وصار له أسلوبا ، وان هذه الدراسة كانت مرغوبا فيها عهدئذ تبعا لرغبة علماء اللغة ورواة الشعر وسعيهم وراء تصحيح اللغةمن لسان الاعراب الذين لم يستعجموا بعد ، فتركوا رواية المولدين لئلا يؤثر استعجامهم في تدوين اللغة ، ولكنهم لم يقتصدوا في الامر وأفرطوا فيه حتى ردوا كل أدب حديث وان كان رائعا لرواية كل أدب قديم وان كان سمجا ، ورويت حول ذلك كثير من النوادر وقيلت جملة من الاشعار منحولة الى شعراء ، البادية والجاهليين ، وكان أكثر المغالين في التعصب للادب القديم ابن الاعرابي الذي صم أذنيه عن سماع كل شعر محدث •

وذكر انهم اسمعوه ارجوزة لابي تمام على انها لاحد شعراء هذيل فقال لولده اكتبها مستحسنا اياها وهي قوله :

وعاذل عذلته في عذله	فظن أني جاهل من جهله
لبست ريعاني فذرني أبله	ما غبن المغبون مثل عقله
من لك يوما بأخيك كله	رأى ابن دهر غرقا في خبله
أعلم منه بحداء ابله	قد لغبت أيدي النوى بشمله
منصلتا كالسيف عند سله	ممتنعا مضطلعا بحمله
مولودة همته من قبله	قد دان ذو الفضل له بفضله
كالصاب من يذقه لا يستحله	الا بأن يسكن تحت ظله

حتى أتى على آخر الارجوزة فلما رأوا استحسان ابن الاعرابي لها ، قالوا له : انها لأبي تمام ، فقال لولده : خرقها ، لا جرم ان عليها أثر الصنعة •

---

(١٢٧) المؤلف : ٣٩

ولما كثر اقبال الناس على القديم وتركهم للحديث من الشعر قال ابن رشيق هذين البيتين يصفهم ويناقشهم :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا ويرى للأوائل التقديما :
ان هذا القديم كان جديدا وسيغدو هذا الجديد قديما

فلما رأى الشعراء المحدثون ان أدبهم قد كسد عند الرواة والنحاة واللغويين ، وان هؤلاء هم الطبقة الممثلة للرأى العام الادبي ، وكانت المناظرات اللغوية تعقد في بلاط الخلفاء ومجالس الامراء ، حتى أن الخلفاء أنفسهم كانوا يوجهون دراسة أبنائهم هذا التوجيه ، عمدوا الى مجاراة هذه النهضة اللغوية ، فدرسوا الادب القديم ، واستوعبوا غريب اللغة ومشكلات النحو ، وجروا في نظمهم الى محاكاة الاعراب ، والتأدب على سليقتهم في التفصح لينفق أدبهم ، حتى ان بعضهم كان يقضي عهدا في البادية ليأخذ لغة الاعراب الاصيلة ، ولعل زي أبي تمام الاعرابي هو من بعض هذا التوجيه ، فظن المأمون انه يخلط عليه بهذا الزى مع ان قصيدته قصيدة حضري ، ومن أثر ذلك ان المتنبي في أول امره عاش زمنا في بادية بني كلب ليأخذ عن الاعراب لغتهم الاصيلة ، فلا بدع ان تكون دراسة ابي تمام اخذاً عن الرواة ، وكانت طبيعة موطنه الاول هي التي اقتضت تلك الحياة الاعرابية التي ظهرت في لغته وفي زيه ، بالرغم من أن معانيه كانت تشير الى شخصيته الحقة رائعة التوليد، وأصبح الغريب في بيانه من الالفاظ المتغلغلة في خلاله المعاني المبتدعة والتفكير العميق ، وقد استطاع بعبقريته ان يجدد في فقه لغته العربية بما يتضمن من معان غريبة في روعتها وربما غاص الى أعمق المعاني بما لاتحتمله لغته فينتزعها انتزاعا تقصر لغته عن حملها فيحدث منها غموض عابه عليه كثير من النقاد ، وهذه اللغة قد اصبحت عند الشاعر بالنسبة الى دراسته الادبية « معروفة ، وأمثلة مألوفة لاينبغي أن يعدوها ، ولا ان يستعمل غيرها »[١٢٨] على حد قول

---

(١٢٨) العمدة : ٨٣/١

ابن رشيق ، وكأنه فسر بهذا عبارة العسكري وليس ابن رشيق كما وصفه المؤلف ممن « يحبون ما ألفوه ولو كان غثا باردا »[١٢٩] ولكنه وجد في شعر أبي تمام وغير أبي تمام ممن اكتسب تربية أعرابية شواهد على ما ذكر في نقده .

والغريب ان نرى الدكتور بعد ان جعل المقدسي منصفا في نقله عبارة ابن رشيق أخذ ينعى على ابن رشيق عقليته ، فوصفه بأنه يحب ما ألفه من الادب الغث البارد ، كما وصف العسكرى بقصر النظر ، قال ذلك بعد ما سجل الانصاف في عبارة ابن رشيق وآثرها على عبارة العسكري . فأي الرجلين أحق بأن يتبع ؟! وأي الرأيين أجدر بأن يؤخذ به ؟!

التعقيد والغموض

تناول النقاد من شعر أبي تمام ما جاءت معانيه معقدة ، وخانه فيها حسن التعبير فنزل به عن مستوى الشعر الحي من أمثال قوله :

هن عوادي يوسف وصواحبه ... فعزما فقدما ادرك النجح طالبه

وقوله :

خان الصفاء أخ خان الزمان له ... اخا فلم يتخون جسمه الكمد

وقوله :

قدك اتئب أربيت في الغلواء ... كم تعذلون وانتم سجرائي

وربما حملوا قبول هذا ونحوه بما يكتنفه من شعر رائع، وانما ينتقدون منها : ان الشاعر لم يشأ أن ينقح شعره من نحو هذه الهنات الغامضة التي تخلو من الاشراق ، ولكن المصنف اكبر من شأن هذه الهنات وأمثالها وعللها

(١٢٩) المؤلف : ٤٠

بتعليله المعهود فجعلها جارية على طبيعة العنصر اليوناني ، ولا أعلم أكان من خصائص الادب اليوناني ان يكون معقدا غامضا ••؟ أو بعيدا عن صفـــاء الطبع والاشراق البياني وانسجام الجرس الموسيقي ••! فما أجدر الا يعنى بأدب هذه صفته التي تبعده عن مكانة الآداب الرفيعة ••!

ان الامثلة التي عيب بها على أبي تمام لهي جديرة بأن ينكر عليه أمرها وحقيق أن يسأل بها : لم تقول ما لا يفهم ؟ وليس جوابه : وأنت لم لا تفهم ما يقال ؟ بمبرر للاستهجان الذي كان منكورا عليه ، وانما تذكر بدائه الاجوبة للطرافة في حسن المغالطة على التبرير المموه ، وليس فيها من حجة علمية أو فنية يفرض بها تحسين أو تقبيح • وذلك كما قيل للعجاج الراجز : انك لا تحسن الهجاء ..! ، فقال : أن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم ، وأحسابا تمنعنا من أن نظلم ، وهل رأيت بانيا لا يحسن أن يهدم ..؟؟ فقال ابن قتيبة : « •• ليس هذا كما يقول العجاج ، ولا للمثل الذي ضربه بشكل ، لان الهجاء بناء والمديح بناء ، وليس كل بان بضرب بصير بغيره »(١٣٠) ، فقول العجاج مستحسن للصورة الفنية من القول ، لا للتقرير الواقعي ، ولقد نطق العدل بلسان ابن قتيبة هنا •

وأبو تمام نفسه يعترف بوجود الرديء في شعره ، فانه حين قيل له : لو نقحت شعرك ..؟! أجاب : وهل يظن أحد أنه وجد في شعري ما لا أعلم رداءته ؟ ، ولكن مثـــل شعر الرجل مثـــل أولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط ، وكلهم في نفسه حلو فهو ان أحب الفاضل لم يبغض المفضول ، وهذا من نوع تلك الاجوبة التي لا تبرر هجنة الرديء ، والنقاد انما يريدون أن تسبق ارادة الشاعر فيسقط كل شية من شعره ليسلم من علل النقص ، ويخلص له رونقه واشراقه •

---

(١٣٠) الشعر والشعراء ٢٦

عصور الانتقال

يعلل المؤلف[١٣١] ما في شعر أبي تمام من الغموض بأنه وليد نهضة أدبية انتقلت بها الاساليب من طور الى طور ، وقد مثل على ذلك ببعض الشعراء من العرب وغير العرب ، فجعل كل شعر يبدأ بنهضة لابد أن يأتي غامضا ، وذكر لذلك حوادث جرت في أزمنة مختلفة ولكنها أمثلة غير مشبعة بالادلة الواضحة ، واذا صح ذلك فليس الغموض بنسبة العصر الذي يلي النهضة بل يصدق على العصور التي سبقتها أو على أغلبية عصره حتى تستحكم أخيرا ، ثم أنه لا يصح أن يسمى غموضا في هذه الحالة بل هو نزول عن حدود كانت معينة ، وقد فرضها الاجماع فوجب اتباعها ، وعاد الخروج عنها مما يثير بعض القول ، لانه خروج عن رأي عام مجمع عليه عادة ليحل مكانه رأي لم يكتسب بعد الصفة الاجماعية .

فالنهضة التي زعمها المؤلف لعصر أبي تمام كان مفعولها ساريا في عهد النقاد قبل أبى تمام ، والذي ذكر المؤلف : انها انتقال أدبي اجتماعي لم يجر الا بعد أن زالت الصفة القومية في الحياة العامة ، على أثر زوال الدولة الاموية التي كانت القومية العربية والاخلاق العربية الاسلامية والغرور القومي تسرى بسياستها ، فلما انطلقت العادات الاجنبية في العهد العباسي ، حصل ذلك الانقلاب الذي عناه المصنف ، وقد مثله أبو نواس وأمثاله بأدبهم الغلماني الخليع ، واما أبو تمام فقد جاء الى بغداد من بعد ان كاد يتم الاستقرار في الحياة العامة ، وقد حمل معه أدبا عربيا ولم يجار حياة بغداد بكل اندفاعه فبقيت في شعره أمثلة المحافظة على روحه الخاص ، ولم يندفع مع شعراء الخلاعة الا الى حد ما .

---

(١٣١) المؤلف : ٤٠

ولم يكن قول النقاد في هـذه النهضة حول الغموض كما حصـره المؤلف ، ولكن حول أساليب مولدة لم يأت بها القدامى أو لم يعهد أنهم استعملوا مثلها ، وأما ما ذكر عن الغموض فلم يسندوه الى غير افراط ابى تمام في الصنعة التي اكثر منها • وكان أكثر من أنكر عليه في ذلك الآمدي في موازنته ، ولم يفت النقاد الباقين انه متحامل عليه ، فمن استدراكه على أساليبه المولدة مما لم يكن معهودا قبله قوله :

فلويت بالمعـــروف أعنــاق المنى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد

فانكر الآمدي ان يستعير الشاعر أعناقا للمنى فيلويه المعروف وظهرا للموعد فيحطمه الانجاز ، وهذا من تحامل هذا الرجل أن جعل الحسنات من السيئات ، وكذلك انكر عليه قوله :

رقيق حواشى الحلم لو أن خلقــه بكفيك ما ماريت في أنه برد

فذكر انه لم يعهد ان شبهوا الحلم بالبرود الحريرية ، وانما شبهوه بالجبال رزانة وثقلا ، ولا يخفى تحامله في انكار روعـة التشبيه في ان يكون الحليم رقيق الحاشية ، كما يكون في رزانته كالجبل أيضا ، وقد جاء في شعر ابي تمام نفسه في قوله :

لـك هضبة الحلـم التي لو وازنت (أجأ) اذن ثقلت وكان خفيفا

وأجأ : أحد الجبلين اللذين سكنتهما (طيء) غربي (نجد) وقد عرفا (بجبلي طيء) وهما (أجأ وسلمى) •

واما ما ذكره عن غموض معانيه ، فانما سببه افراطه في الصناعة ، في نحو قوله :

خـان الصفاء أخ خان الزمان لـه أخا فلم يتخون جسمه الـكمد

واذا كان الغموض وليد نهضة أدبية ، كما ذكر المؤلف كان غموضا على من سبق عصره ، أو على الاكثرية من معاصريه ، لا على العصر الذي جاء بعده وكان أدبه مما درس وعرف فيه ما له وما عليه •

السرقات الشعرية

ان هذا الموضوع يتطلب عدلا وانصافا واناة في الحكم ، لان مجال القول واسع في رد المعاني الى اشباهها ونظائرها ولو من طرف خفي ، كما يمكن ايجاد التشابه اللفظي والتركيبي بين كثير من الجمل ، ولو أهملت معاذير الشعراء ما سلم أحد من المؤاخذة والاتهام •

ان تداول المعاني بين الشعراء أمر لابد منه لان المعاني حق مشترك بين العواطف الشاعرة كافة ، فكان لابد ان يتوصل أكثر من شاعر اليها بطبيعة تفكيره ومنطقه الصحيح ووحدة الموضوع وأثر البيئة والتربية وانما يختلف الشعراء في طريقة الاداء وناحية الاسلوب ومبلغ الاستعداد العقلي والجسمي والنفسي من حيث أثر المزاج في النشاط وأثر الاخلاق في الذوق ، ومن هنا يتفاوت الحسن في البيان •

أما الاتفاق في الالفاظ والتراكيب الجميلة فقد يحدث اذا توفرت فيها الدواعي ، واذا تجاوز الاتفاق ضروب البيت وشطوره فلا يتجاوز الى البيت الثاني ، على أن يخلو مبناه من الحوشيات والتعقيدات ، ولا يحدث اتفاق فيما لايخلو من ذلك أو كان متضمنا صنعة متكلفة ، فالكلام اذا جرى على الطبع واندفع بسلسال السجية ، واتسقت ألفاظه اتساقا ممتزجا بطبيعة الفن البياني ، وثبت عدم التواطؤ بين المتفقين في ذلك التركيب حمل على هذا المحمل •

وبهذا التعليل نرى ان السامع يسابق المنشد الى قافيته ، وأحيانا الى بعض تراكيبه لان طبيعة القول المتسق بطبيعة الامتزاج بين ألفاظه المقترنة

اقتضت ان ينازع السامع المنشد على الجمل والقوافي ، وانا كنت شخصيا انشد قصيدة في بعض الحفلات وكان حاضرا فيها من كان يسابقني في الانشاد على اتمام ابيات القصيدة حتى انتهيت الى آخرها . ومرة كنت قد قلت هذا البيت مطلعا لقصيدة نظمتها وهو :

بربك يا مليحة خبرينا : أيشقى في هواك العاشقونا

فانشدني من لم يكن سمعها مني قبل ذلك لنفسه :

بربك يا مليحة خبرينا : متى يجد الهناء العاشقونا

فاذا لم تتوفر تلك المعاذير ، فهو السرقة التي لا يجوز التماس الاعذار لمرتكبها ، كما حدث أن بعض من نعرفهم أنشد في رثاء بعض معارفيه فبدأ قائلا :

أعيدي النوح يا ثكلى اعيدي وزيدي من عويلك ثم زيدي

وهذا عين ما بدأ به أبو تمام احدى مراثيه ، وهو :

اعيدي النوح معولة أعيدي وزيدي من بكائك ثم زيدي

وليس شعر أبي تمام مجهولا لدى المتأدبين وان تغيير كلمتين في البيت لا يخفي جريمة السرقة ، ولذلك جرى الاعتراض على المنشد فبدا ارتباكه المشين ، وليس بخاف على متذوقي روعة البيان الفرق بين اشراق (معولة) وركاكة (يا ثكلى) بل الفرق بين اتساق (بكائك) وتكلف (عويلك) .

وانني انتهز فرصة الموضوع لتسجيل حادثة أدبية طريفة ، وذلك اني كنت مرة بدأت بمرثية كان مطلعها :

كل حال مع الزمان تحول سنة الله ما لها تبديل

ثم حالت شواغل جمة دون اتمامها فتركتها بعد أن بلغت بضعة أبيات وقد اطلع عليها من أختصهم من رفاقي عهدئذ ، ثم أصدرت بعد حين

مسرحية شعرية باسم (قيس لبنى) جاء في بعض محاوراتها :

هكذا هكـذا يكون التصـابي   سـنة الله ما لهـا تبـديل

وفي أثناء ذلك نشرت قصيدة جاء فيها :

أتيت لتجـديد العهـود فانني   أرى كل حال في الزمان تحول

ولم أكن أعلم أن أحـد أولئك الرفقة انتحل مرثيتي فبنى عليها قصيدة في رثاء أحـد الراحلين عن الحيـاة ، منتهزا فرصة تركي اياها وانشغالي عنها ، فخشى ان تظهر سرقته ، وعدني أنا المؤاخذ في مقال نشره حينئذ وزعم أنني أنا الذي لفقت البيت وجعلته في بيتين ، لو لم ينتصر لي من ألف الوفاء والصراحة من أولئك الرفقة ، وذكره بما كان قد تناساه ، فشكرت في مقال لمن انتصر ، واعتذرت لذلك الشاعر الظريف بأني لو علمت أنه أضاف بياني الى بيانه لاغتبطت بالامر وتناسيت البيت أن أذكره ، لاعترافي بانه من الشعراء المحسنين ، ولكنه اذا استجاد شعرا بادر اليه قبل ان يشتهر ،

ولعل فيما تقدم صفعة لمن يقدم على مثل ذلك ، وقد قيل قبلا :

فسـارق المـال يقطـع   وسـارق الشـعر يصـفع

وليست السرقة اتفاقا لان السرقة أخذ بتعمد ، والاتفاق محمول على توارد الخواطر اذا توفرت شروطه ودواعيه .

غير أن هنالك أخذا يتعمده الشاعر ، ولا يعد سرقة ، ويكون على ثلاث حالات :

فاما ان يكون لغاية التوليد أو توسيع المعنى أو للاعتراض على القائل ، وأبسط أمثلته قول المتنبي :

كـذب ابن فاعلة يقـول بجهله :   (ذهب الكرام) وأنت حي ترزق

فكأنه يعنى قول القائل :

(ذهب الكرام) فلا كريم يرتجى   منه النوال ، ولا مليح يعشق

وقول ابي نواس :

قل لمن يبكى على رسم درس　　واقفا : ما ضر لو كان جلس ..؟!

وكأنه يتهكم على امرىء القيس لقوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول ابي نواس أيضا :

عاج الشقي على دار يسائلها　　وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد　　لادر درك قل لي : من بنو أسد

وكأنه يعيب بذلك على النابغة الذبياني لقوله :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار　　ماذا تحيون من نؤي وأحجار

واما أن يكون لغاية (الاقتباس) وهو أن يأخذ الشاعر جملة مناسبة من آي التنزيل أو عبارة من الحديث الشريف أو مثلا من الامثال السائرة فيرصع بها بيانه اما بتصرف أو بمورد النص حسبما يتفق مع الوزن والقافية فمن ذلك قول أبي نواس :

أقول لمقلتيه حين ناما　　وسحر النوم في الأجفان سار
تبارك من توفاكم بليل　　(ويعلم ما جرحتم بالنهار)

اقتبسه من قوله تعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) ، وقد اقتبس أبو تمام من الحديث الشريف فقال :

اذا لم تخش عاقبة الليالي　　ولم تستحي فاصنع ما تشاء

وهو من قوله صلى الله عليه وسلم : (ان مما أدركه الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستحي فاصنع ما شئت) .

وأما أن يكون لغاية (التضمين) وهو أن يأخذ الشاعر بيتا أو أقل

أو أكثر من شاعر آخر تدعو اليــه مناسبة الموضوع ، فمن ذلك قــول معروف الرصافي :

أقول والبرق يسري في مضاجعهم (ياساري البرق أيقظ راقد السمر)

وهذا من قول المعري :

يا ساري البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعوانا على السهر

ولعل التشطير والتخميس من الفنون التي نبه اليها التضمين لانهما من نوعه ، وقد جرى المتاخرون على حصر البيت أو الابيات أو الشطر مما يضمنونه في شعرهم ، فيجعلونه بين الاقواس للدلالة عليه . ولم تكن هذه الطريقة جارية في الادب القديم ، وربما كان ذلك لشيوع الرواية في عصرهم فكان السامعون يفهمون بالتواطؤ الاصطلاحي أن ذلك تضمين لا سرقة وعلى ذلك جرى عرفهم الادبي .

دعوى السرقة في شعر أبي تمام

لآبي تمام مقطوعة يتفق ببعض أبياتها مع شاعرين وهي قوله :

اذا جاريت في خلــق دنيئــا فأنت ومن تجــاريه ســـواء
رأيت الحــر يجتنب المخـازي ويحميــه من الغــدر الوفـاء
ومــا من شـــدة الا ســيأتي لها من (بعد شدتها رخاء)
لقد جربت هــذا الدهر حتى أفادتني التجــارب والعنـــاء
اذا ما رأس أهل البيت ولى بدا لهــم من الناس الجفـاء
(يعيش المــرء ما استحيا بخـير ويبقى العود ما بقي اللحـــاء)
(فلا والله ما في العيش خـير ولا الدنيــا اذا ذهب الحياء)
اذا لم تخش عاقبــة الليــالي ولم تستحي فاصنع ما تشـــاء

لئيم الفعل من قوم كرام ... له من بينهم أبدا عواء

فقد ضمن في بعض أبيات القصيدة قول النظار بن هاشم الازدي :

فلا وأبيك ما في العيش خير ... ولا الدنيا اذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء

وضمن فيها أيضا قول قيس بن الخطيم :

وكل شديدة نزلت بقوم ... سيأتي بعد شدتها رخاء

وفي قصيدة أبي تمام من الاقتباس قوله الذي ذكرته آنفا ، وهو :

اذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فليس في هذه الابيات ما كنت ذكرته من الاتفاق لعدم توفر المعاذير التي عددتها شروطا للاتفاق ، كما أنه ليس بسرقة لما سأبينه :

ان هذه الابيات جارية على طريقة التضمين ، ولكنه لم يحصرها بين الاقواس ، لان الرواية في ذلك العهد كانت شائعة .

ويلاحظ أن النظار الازدي وقيسا ابن الخطيم كلاهما من شعراء الحماسة ، وان أبياتهما سجلها أبو تمام نفسه في ديوان الحماسة الذي اختاره من شعر العرب .

غير ان الدكتور عمر فروخ قال[١٣٢] : ان هذا الشعر « نوع من السرقة صحيح » وذكر أنه « لو ظفر الآمدي بهذا البيت لالف في مثالب أبي تمام كتابا جديدا » قال ذلك علما منه بتحامل الآمدي على أبي تمام .

وليت الدكتور قد استوفى استقراءه للموضوع استيفاء جديا كاملا فهي ثلاثة أبيات وليست ببيت واحد كما قال . ثم ان الأمدي قد ظفر بها ، واكتفى عن عناء التأليف لكتاب جديد في مثالب الشاعر بالتنويه عنه بما

---

(١٣٢) المؤلف : ٤٩

لا يعدو قوله[١٣٣] : ان أبا تمام « اخذ معنى البيتين واكثر لفظهما » ثم أوردهما برواية مغايرة لرواية ديوان الحماسة ، ولعله يقصد التضليل في ذلك ليبعد القول عن كونهما تضمينا ، وهما :

يعف المرء ما استحيا ويبقى نبات العود ما بقي اللحاء
وما في أن يعيش المرء خير اذا ما المرء زايله الحياء

ولعمري ان ديباجة العلماء في هذا الشعر ظاهرة في هذا التغيير المتكلف متجلية بركاكتها خلال الجمل الآتية :

(يعف المرء) ما استحيا ويبقى (نبات العود) ما بقي اللحاء
(وما في أن يعيش المرء) خير اذا ما المرء (زايله) الحياء

فاين هذه العبارات المتكلفة بحشوها وبمصادرها المؤولة والفروق الظاهرة في جملتي (يعف المرء) و (يعيش المرء) وجملتي (نبات العود) و (يبقى العود) وجملتي (وما في ان يعيش المرء خير) و (فلا وأبيك ما في العيش خير) وجملتي (اذا ما المرء زايله الحياء) و (ولا الدنيا اذا ذهب الحياء) . وهذه العبارات كلها أشبه بالتعريفات العلمية منها بالشعر ـ فاين هذا كله ـ من الاشراق المتلألىء في رونق الديباجة الاصلية ..؟

ولو لم يعهد الآمدي بجواز التضمين في الشعر على أية صورة جاء لما تردد أن يؤلف الكتاب الذي توقعه المؤلف في مثالب أبي تمام .

ولو كان أبو تمام قد سرق هذه الابيات لما أثبتها في اختياره الموسوم بالحماسة ، وليس معهودا أن ينسى شاعرنا أو يتناسى ما يدونه من الشعر ثم يدعيه لنفسه ويعرض أدبه لنقد الناقدين ، وهو المشهور بحدة الذهن وقوة الحفظ وانه كان كما قيل : يحفظ أربعة عشر ألف ارجوزة عدا

(١٣٣) الموازنة ١/٩٤ تحقيق السيد احمد صقر

القصائد والمقطوعات ، واذا كان هذا من المبالغات عن حفظ الشاعر فان خبره يستند على أن له قوة خارقة في الحفظ ، ومن كانت هذه محفوظاته مهما كانت منزلتها فلا يمكن ان يتورط صاحبها بهذا الاخذ الفاضح •

التوشيح

ذكر الدكتور[١٣٤] : أن في شعر أبي تمام فنا من فنون الشعر المستحدثة ، وهو (التوشيح) وجعل من امثلته قول أبي تمام :

يقول فيسمع ، ويمضي فيسرع ، ويضرب في ذات الاله فيوجع

وقوله :

ثقيل ردف ، دقيق خصر ، شقيق شمس ، نتيج بدر

وقوله :

أيام سيفك مشهور ، وبحرك مسجور ، وقرنك مقصور له الطول

وقوله :

أنا الحسام ، أنا الموت الزؤام أنا الحرب الصدام ، أنا الضرغامة العتد

وهذه الابيات وامثالها ليست من التوشيح في شيء ، ولكنها جارية على فنين من فنون البديع هما التسميط والتفويف وسنذكرهما ، اما التوشيح فقد وصفه ابن خلدون[١٣٥] بأنه ينظم اسماطا وأغصاناً ، وان الشعراء يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة وانهم يسمون المتعدد منها بيتا واحدا وأن أكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات وان البيت الواحد في القصيدة

---

(١٣٤) المؤلف : ٥٨ ـ ٥٩

(١٣٥) المقدمة ٣٨٤

الكاملة لا يسمى توشيحا ، وذلك حيث يقول : ان الشعراء « يلتزمون عند قوافي تلك الاغصان وأوزانها نهجا متتاليا ، الى آخر القطعة » .

وذكر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله[١٣٦] أصل كلمة التوشيح ، وجعلها « منقولة عن قولهم : ثوب موشح لوشي يكون فيه » ، قال : « فكأن الاسماط والاغصان التي يزينون بها هي من الكلام في سبيل الوشي من الثوب ثم صارت علما » ثم استدرك بقوله : « الا أن يكون الاندلسيون أخذوا سبب التسمية من المشارقة فتكون منقولة عن التوشيح الذي عده قدامة بن جعفر[١٣٧] من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، فيكون اشتقاقها من معنى الوشاح ، لان معنى أول البيت يدل على قافيته فينزل منزلة الوشاح في جولانه على العاتق والكشح » .

وذكر ابن خلدون في أصل اختراع هذا الفن[١٣٨] : « ان أهل الاندلس لما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ... استحدث المتأخرون فنا سموه بالموشح » .

ولكن الرافعي يخطىء ابن خلدون في هذا[١٣٩] ويجعل « الذي نبه الى اختراع أوزانه انما هو الغناء لا غير ، وذلك لان التلحين في بعض الوجوه يجيء بجمل مقطعة تتساوق مع النغم ، فهو يبدأ بصوت ، ثم يتفرع ويتشعب ثم يعود الى الصوت الذي بدأ به ، وهذا في الغناء شبيه بالاسماط في التوشيح ، فانها تتفرع الى أغصان ثم تعود الى الاسماط » ، وذكر : ان اول تاريخ للغناء في الاندلس يبدأ بقدوم زرياب من العراق سنة ٢٠٦هـ ، وقد قدر المدة بين شيوع الغناء واستحداث التوشيح بنحو نصف قرن ، ولذلك فهو يرى أن التوشيح لم يخترع الا في الربع الاخير من القرن الثالث الهجري .

---

(١٣٦) تاريخ آداب العرب ٣/١٦٠

(١٣٧) نقد الشعر ٦٣ طبعة الجوائب ١٣٠٢

(١٣٨) المقدمة : ٣٨٤

(١٣٩) تاريخ آداب العرب ٣/١٦١

وبعد أن نعلم ان أبا تمام توفي سنة ٢٣١هـ فانـه لم يدرك عصـر اختراع التوشيح بله عصر انتشاره ووصوله الى المشارقة •

وأكثرهم يعدون المخترع الاول لهذا الفن مقدم بن معافر ، وقـد عاش بين تاريخي ٢٥٠هـ و٣٠٠هـ وقد لقي فنه كثيرا من الكساد حتى ظهر أبو عبادة بن القزاز المتوفى سنة ٤٢٢هـ فبدأ يروج وينتشر •

غير ان ابن بسام ذكر[١٤٠] : انه نشأ بين المخترع الاول للموشح مقدم ابن معافر وبين ابى عبادة بن القزاز هذا رجل كان ممن يعمل في نهضة التوشيح الادبية ، وهو يوسف بن هرون الرمادي المتوفى سنة ٤٠٣هـ ، ولابد أن يكون أبو عبادة قد أخذ عنه مثال الصنعة •

فلو كان أبو تمام نظم في هذا الفن لعد بحق هو المخترع الاول لفن التوشيح لانه أسبق عهدا من مقدم بن معافر ولكان ذكر مؤرخو الادب انتقال هذا الفن من المشارقة الى الاندلس ، فلم ينسبوه الى أدباء تلك الجزيرة ، ولكان وصل الينا من موشحات ابي تمام ما يشير الى فضله فيها •

أما الامثلة التي أوردها الدكتور فلا تصلح أن تكون من شواهد هذا الفن لانها لا تنطبق على ما وصف به الموشح ، فيمـا مر من كلام ابن خلدون ، وما نعرفه في علمي العروض والقوافي ، وما نراه في الموشحات المتداولة لدينا ، فهي أسماط وأغصان ، تلزم في الاسماط قافية تأسيسية يطلق عليها اسم (الدور) أحيانا ثم تأخـذ القوافي في الاغصان أشكالا أخرى ، ثم ينتهي كل غصن بقافية (الدور) التأسيسية •

ولو جرينا على ما رسمه المصنف للتوشيح فيما أورده من الامثلة لأمكن أن يعد كل شعر موشحا لان تفاعيله العروضية نفسها أجزاء متعددة في البيت ، ولـكن أهل العروض لا يرون ان يعبث بالشعر هذا العبث

---

(١٤٠) الذخيرة ٢/٢٩٩

لتكون كل قصيدة موشحا على ما جرى عليه الدكتور في شواهده ، وهذه الشواهد جارية على نوعين من أنواع البديع الاخرى ، وهما التسميط والتفويف ، وقد سبقت الاشارة اليهما .

التسميط

ويسميه ابن رشيق الشعر المرصع ، وهو أن يقسم البيت الى أجزاء عروضية مقفاة ، فأما أن تجري قوافي أجزائها على روي القافية الملتزمة في القصيدة كقول أبي تمام من شواهد الدكتور على التوشيح :

يقول فيسمع ، ويمضي فيسرع ، ويضرب في ذات الاله فيوجع

وقوله منها أيضا :

نجوم طواليع ، جبال فوارع ، غيوث هواميع ، سيول دوافع

واما أن تجري قوافي أجزائها مغايرة لروي القافية الملتزمة في القصيدة كقول ابي تمام من تلك الشواهد :

أنا الحسام ، أنا الموت الزؤام ، أنا الحرب الصدام ، أنا الضرغامة العتد

وقوله منها أيضا :

أيام سيفك مشهور ، وبحرك مسجور ، وقرنك مقصور له الطول

ويجيزون في التسميط تساوي الاجزاء العروضية ، كالبيتين الاولين ، أو اختلافهما كالبيتين الاخيرين ، ثم انه لا يلزم ان يجري هذا الترصيع في جميع القصيدة كما يلزم قصيدة الموشح كلها ، واذا ورد في جميع القصيدة فذلك يجري حسب رغبة الشعراء والنظامين في الصنعة ، ولقد رغب أبو العلاء المعري ان يلتزم الحرفين الاخيرين من القافية وقد سمى ديوانه الذي جرى فيه على هذه الطريقة (لزوم ما لا يلزم) وتدل هذه

التسمية على عدم وجوبها في الشعر ،

وليس التسميط من الفنون المستحدثة في الشعر ، فان له أمثلة كثيرة من الشعر الذي سبق زمن الموشح •

التفـــويف

وهــذا فن آخر من فنون البديع غير لازم في القصيدة كلها الا اذا رغب فيها الشاعر الملتزم للصنعة ، وطريقته أن يأتي الشاعر بمعان شتى في جمل منفصلة عن بعضها مع تساو في وزنها ، ولا تشترط فيها التقفية ، ولا وحدة الروي ، وهو كما في قول أبي تمام من أمثلة الدكتور علي التوشيح :

ثقيــل ردف ، دقيق خصــر　　شقيق شمس ، تتيج بدر
بديع حســن ، رشــيق قــد　　مليح خــد ، نقي ثغــر
قضــيب بان ، عليـــه بــدر　　مثــال حسن ، عروس خــدر
يا خصر قد كنت ذا استتار　　في الحب حتى هتكت ستري
نمت دمــوعي عــلى عــزائي　　اذ غاب عني جميــل صبري

الوزن الجــديد

مما علق الدكتور انه ذكر في قول أبي تمام :

ثقيــل ردف ، دقيق خصــر　　شقيق شمس ، تتيج بدر

ان هــذه القصيدة التي فيهــا هــذا البيت ليس من الأبحر الســتة عشر[١٤١] ، بل هو وزن استحدثه أبو تمام ونظم فيه ، فهو بحر جديد ! والصحيح انه ليس بوزن جديد ، ولا عمل لأبي تمام في اختراعه ،

---

(١٤١) المؤلف : ٥٩

ومن المعلوم ان الابحر الستة عشر لم تخترع اختراعا ، وليس لاحد عمل على ايجادها ، فهي موجودة كما كانت قواعد النحو موجودة ، وكل ما صنعه الخليل بن أحمد الفراهيدي انه استقرأها وتتبعها ، ووضع لها منهجها وقواعدها وأصولها ، فتوصل منها الى خمسة عشر بحرا وعد مكتشفها الاول ثم جاء بعد الاخفش الكبير فاكتشف منها بحرا سماه (المتدارك) . فبلغت ستة عشر بحرا كما هي عليه اليوم ، وكل وزن استحدث بعدها لابد ان يرجع اليها ، وان اختلفت الاوضاع . ولو كان أبو تمام له عمل في اختراع وزن جديد لاقام دنيا علماء الادب واقعدها ووضع في أول قائمة (المخترعين) ولا يخفى ان (الاكتشاف) غير (الاختراع) لان في هذا ايجاد ما لم يوجد ، وفي الاكتشاف الوصول الى عمل موجود ولكنه غير معروف .

واما الشعر الذي استشهد به المؤلف فهو موجود وقد اكتشفه الخليل وسماه علماء العروض باسم (مخلوع البسيط) أو (مخلع البسيط) وهو من ضروب بحر (البسيط) .

وذكر السكاكي[١٤٢] : في معلقة عبيد بن الابرص كثيرا من هذا البحر ، ومطلعها :

أقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب
وبدلت منهم وحوشا   وغير حالها الجنوب
ارض توارثها الجدوب   فكل من حلها محروب
اما قتيلا واما هلكا   والشيب شين لمن يشيب

وانما قال السكاكي : ان فيها كثيرا من هذا البحر لانها مختلة الوزن في بعضها ، وكان من رأي الكثيرين أن تلحق بالخطب ، وقال ابن رشيق[١٤٣] : انها « كادت تكون كلاما غير موزون بعلة ولا غيرها » ونقل :

---

(١٤٢) مفتاح العلوم ٢٥٣
(١٤٣) العمدة ٩١/١

أن بعضهم قالوا : « هي خطبة ارتجلها فاتزن له اكثرها » ، وذهب البعض من المتأخرين الى أنها قديمة جدا فتكون معاصرة للشعر البدائي ، ولا أرى ذلك صحيحا لان لعبيد بن الابرص ديوانا لم يضطرب منه في غير هـذه القصيدة ، واليها أشار المعري بقوله :

وقد يخطىء الرأي امرؤ هو حازم كما اختل في نظم القريض عبيـد

فالمتزن منهـا جاء على هـذا الضرب المسـمى (مخلوع البسيط) وميزانه :

مستفعلن فاعلـن فعولـن •• •• •• •• •• ••

بينما يكون وزن (البسيط) :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن •• •• •• •• •• •• ••

وقد أورد الدكتور لأبي تمام نفسه أثناء أبحاثه في هذه الرسالة أبياتا جارية على هذا الوزن ، ولم يشر الى انها من هذا الوزن الجديد الذي اخترعه فمنها :

فكن كريما تجـد كريما في مدحـه يا أبا المغيث

وهو آخر بيت من قصيدته :

صرف النوى ليس بالمكيث ينبث مـا ليس بالنبيث
هبـت لاحبابنـا رياح غـير سـواء ولا دثوث

وقوله يرثي ولده :

كان الذي خفت ان يكونا انـا الى الله راجعـونا

جاء بعد هذا البيت :

أمسـى المرجى أبو علي موسدا في الثرى يمينـا
حين انتهى واستوى شبابا وحقـق الرأي والظنـونا

أصبت فيــه وكان عندي على المصيبات أن يعينــا
كنت عزيزا بــه كثيرا وكنت صبــا به ضنينــا
دافعت الا المنــون عنــه والمرء لا يدفع المنــونا

وبعد فان هذا الوزن المسمى (مخلوع البسيط) أو (مخلع البسيط) وزن قديم ، وله أمثلة من الشعر الذي سبق عصر أبي تمام ، ومنه ما أورده سيبويه من شواهد (الكتاب) :

ألم تروا أرمــا وعــادا أودى بها الليل والنهار
ومر دهــر عــلى وبار فهلكت جهــرة وبــار

وذكر القالى في أماليه(١٤٤) ان الأصمعي رأى امرأة جالسة تبكي عند قبر وتقول :

هل خبر القبر سائليه ؟ أم قر عينا بزائريه ؟
أم هل تراه أحاط علما بالجسد المستكن فيــه ؟
لو يعلم القبر من يوارى تاه على كل من يليــه

جاء في هذه القصيدة :

يا جبلا كان ذا امتناع وطود عــز لمن يليــه
ونخلــة طلعها نضــيد يقــرب من كف مجتنيه
ويا مريضــا على فراش تؤذيه أيــدي ممرضــيه
ويا صبورا عــلى بــلاء كــان بــه الله يبتليــه
آمنــك الله كــل روع وكل مــا كنت تتقيــه

وهذه القصيدة جارية على هذا الوزن الموجود قديما ، وليس لابي تمام عمل في ايجاده .

---

(١٤٤) اماسى القالى : ٣٢١/٢

حذف نون (من)

يظن المؤلف انه[١٤٥] وجد في شعر أبي تمام بيتا واحدا فيه كلمة (عامية) وهي في قوله :

الا بكرت معذورة حين تعذل تعرفني (ملعيش) ما لست أجهل

ولعله حسب أن قوله : (ملعيش) كلمة عامية ، ولا أخاله الا توهم فصحفها (معليش) أي لا بأس وهي دارجة في لهجة مصر العامية ، وكأن المؤلف لم يطمئن الى شرح الخياط رحمه الله لهذه الكلمة بأنها : (من العيش) ولو أتعب نفسه لوجد ان هذه الكلمة ليست عامية بل هي جارية على قاعدة عربية فصيحة .

قال أبو اسحق[١٤٦] : يجوز حذف النون من (من) و (عن) عند الالف واللام لالتقاء الساكنين ، وهو في (من) أكثر ، يقال : (ملآن) و (من الآن) ، ونقل ذلك عن ابن الاعرابي ، قال : وجوزوا حذف مثل هذه النون لسكونها وسكون اللام ، فيما لم يكن فيه ادغام .

ولكن السيوطي[١٤٧] ذكر أن هذه النون تحذف مع (ال) المدغمة أيضاً وأشار الى أن ذلك قليل كما في قوله :

.. .. المطعمين سدائفا (منيب) غرا

---

(١٤٥) المؤلف : ٥٩

(١٤٦) الدرر اللوامع ٢/٢٣١

(١٤٧) همع الهوامع : ٢/٢٠٠

أي (من النيب) ، وأورد من شواهد حذفها مع غير المدغم قول أبي صخر الهذلي :

للیلی بذات البين دار عرفتها ... واخرى بذات الجيش آياتها سطر
كأنهما (ملآن) لم يتغيرا ... وقد مر للدارين من بعدنا عصر

قال : والأصل (من الآن) • وجاء في الصحاح مادة (من) : ان من العرب من يحذفون نون هذا الحرف (من) عند الالف واللام لالتقاء الساكنين فيقول : (ملكذب) أي (من الكذب) ، وكذلك جاء في سائر المعاجم الموسوعة ، وللشاعر العرجي قوله :

وما أنس (ملأشياء) لا أنس قولها ... لجارتها : قومي اسألي لي عن الوتر[(١٤٨)]

ويعلل التبريزي هذه القاعدة في قول ابن ميادة :

وما أنس (ملأشياء) لا أنس قولها ... وادمعها يذرين حشو المكاحل

انه لما تعذر الاتيان بالمتقاربين جعل الحذف بدلا من الادغام ، قال : وانما حذفت النون لمشابهتها حرف العلة ، ولقربها من اللام في النطق •

غير ان البعض ذكر انها جارية على لغة (زبيد) و (خثعم) وأورد شاهدا عليه قول الشاعر :

لقد ظفر الزوار أقفية العدى ... بما جاوز الآمال (ملأسر) والقتل

أي (من الأسر) • وعلى هذا فهي ضرورة شعرية على قاعدة : « ان الضرورة اذا وافقت بعض اللغات لاتخرجها عن الضرورة » قال العلامة محمود شكري الالوسي رحمه الله : وقد صرح أبو سعيد القرشي بذلك في

---

(١٤٨) ديوان العرجى ١٧٨

أرجوزته في فن الضرائر[149] ، فقال :

وربما تصادف الضروره   بعض لغات العرب المشهوره

غير ان ورود الحذف لنون (من) في الشعر بكثرة جعل قاعدتها مطردة أو مسموحاً بها فيما لو صح أنها ضرورة بجريانها على بعض اللغات ، وقد قال أحد النحاة :

والحذف حق نون (من) من قبل (ال)   وحذفها في الشعر غير مستقل

أي ان حذفها لا يختص بالشعر دون النثر .

وقد ورد في الشافية[150] عند الكلام على الحذف الاعلالي ، قالوا : (بلعنبر) و (علماء) و (ملماء) ، في (بني العنبر) و (على الماء) و (من الماء) ، وفي المفصل[151] عند قولهم : (بلعنبر) و (بلعجلان) في (بني العنبر) و (بني العجلان) ، و : (علماء بنو فلان) أي (على الماء) وأنشد :

غداة طفت (علماء) بكر بن وائل   وعاجت صدور الخيل شطر تميم

قال : واذا كانوا ممن يحذفون مع امكان الادغام فهم مع عدم امكانه احذف ، ثم ذكر حذفهم اللام من (هل) و (بل) قال : وقرىء : (هثوب الكفار) في (هل ثوب الكفار) . وأنشد سيبويه :

فذر ذا ولكن (هتعين) متيما   على ضوء برق آخر الليل ناضب

أي (هل تعين متيماً) ، وقال الآخر :

تقول اذا اهلكت مالا للذة   فكيهة : (هشيء) يكفيك لائق .!؟

---

(١٤٩) الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ٣٤

(١٥٠) الشافية في الصرف ١٦١ طبعة دهلى حجر

(١٥١) شرح المفصل لابن يعيش ١٠/١٥٤

أي (هل شيء) ، قال : وعلتهم في الحذف كراهة اجتماع المثلين في (اللام) مع (لام المعرفة) كما حذفوا في ظللت ، فقالوا : (ظلْت) .

وهنالك شواهد كثيرة من الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي على حذف هذه النون من (من) ، وكلها تؤيد ان أبا تمام لم يأت بكلمة (عامية) في قوله :

الا بكرت معذورة حين تعذل　　تعرفنى (ملعيش) ما لست أجهل

□ □ □

الكلمة الاخيرة

وبعد فقد آن لي أن أكتفي بما تقدم من مناقشة الدكتور عمر فروخ على المآخذ التي وجدتها في رسالته : « أبي تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله » وما اعتمده من محاضرة الدكتور طه حسين •

ولا أريد أن أختم البحث بتلخيصه ، اذ لا أود أن يكتفي القارىء بمطالعة عابرة لبحث بذلت فيه جهدا ، وصرفت له وقتاً •

ويسرني أن يجد القارىء فيه مايسره ، وذلك مضمون له اذا صرف بعض وقته بمطالعتها ، ومضمون له أن يندفع الى اعادة قراءتها غير مرة بنفس الرغبة التي دفعته اليها أول مرة •

ثم اكرر الرجاء في أن أغتبط بحلم الدكتور فروخ في حمله شطط القلم أحيانا على حسن الظن بي ، فاني لا أريد الا المشاركة في نشدان الحق وتعيينه ، أما اذا أراد أن يحتاط لمكانتــه من الأدب أن يمسها صدع فذلك ما يأباه العقل ، ولا يرضى به العلم ، فان كلمة (الحق) أعز في (العلم) حرمة من (الالقاب) المجردة •

خضر الطائي

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس الأمم والقبائل

فهرس الأمكنة والبقاع

فهرس القوافي

مراجع الكتاب

أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم للدكتور عمر فروخ (مطبعة الكشاف ـ بيروت ١٩٣٥) .
أخبار أبي تمام للصولي ، تحقيق خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الاسلام الهندي (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٧) .
اعلام النبوة للماوردي (المطبعة المحمودية ـ القاهرة ١٩٣٥) .
الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني (دار الكتب المصرية ـ القاهرة ، بديء بطبعه سنة ١٩٢٧) .
الامالي للقالي (دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٦) .
امراء الشعر العربي في العصر العباسي لانيس المقدسي (بيروت ـ ١٩٦٣) .
تاج العروس للزبيدي (المطبعة الخيرية ـ القاهرة ١٣٠٦ هـ) .
تاريخ آداب العرب للرافعي (مطبعة الاستقامة ١٩٤٠) .
تاريخ ابن الوردي لعمر بن الوردي (شركة جمعية المعارف ـ القاهرة ١٨٦٨) .
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٣١) .
التاريخ الكبير لابن عساكر (مطبعة روضة الشام ١٣٢٩ هـ) .
الدرر اللوامع للشنقيطي (مطبعة كردستان الاميرية ـ مصر ١٣٢٨هـ) .
الديارات للشابشتي ، تحقيق كوركيس عواد (مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥١) .
ديوان الحماسة ، اختيار أبي تمام الطائي (مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩١٣) .
ديوان عبيد بن الابرص (دار صادر ـ بيروت ١٩٥٣) .
ديوان العرجي ، تحقيق خضر الطائي (مطبعة الشركة الاسلامية للطباعة والنشر ـ بغداد ١٩٥٦) .
ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (مطبعة حسام الدين القدسي ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ) .
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٩) .
الرسالة (مجلة الزيات في القاهرة ، مجلدات ١٩٣٣ ـ ١٩٥٣) .
سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للسويدي (المطبعة المرتضوية ـ النجف ١٣٤٥ هـ) .

الشافية لابن الحاجب (دهلي ١٣١٠ هـ) .
شرح المفصل لابن يعيش النحوي (المطبعة المنيرية ـ مصر) .
الشعر والشعراء لابن قتيبة (مطبعة الحلبي ـ القاهرة ١٣٦٩ هـ) .
الصناعتين لأبي هلال العسكري ، تحقيق البجاوي ومحمد أبي الفضل ابراهيم (مطبعة الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٢) .
ضحى الاسلام لأحمد أمين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٥) .
الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر للعلامة محمود شكري الآلوسي (المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٤١ هـ) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (بولاق ١٢٧٤ هـ) .
العمدة لابن رشيق (مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٠٧) .
قيس لبنى لخضر الطائي (مطبعة بغداد ـ بغداد ١٩٣٤) .
لزوم ما لايلزم للمعري (دار صادر ـ بيروت ١٩٥٢) .
الكتاب لسيبويه (المطبعة الاميرية ببولاق ١٣١٧ هـ) .
مروج الذهب للمسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (مطبعة البابي ـ القاهرة ١٩٤٨) .
معجم البلدان لياقوت الحموي (دار صادر ـ بيروت ١٩٥٥) .
معجم الشعراء للمرزباني ، تحقيق عبدالستار احمد فراج (مطبعة الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٠) .
مفتاح العلوم للسكاكي (مطبعة الحلبي ـ القاهرة ١٩٣٧) .
مقدمة ابن خلدون (بولاق ١٢٧٤ هـ) .
مناقب الامام أحمد بن حنبل لابن الجوزي (مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ) .
من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين (مطبعة الصاوي ـ القاهرة ١٩٣٦) .
الموازنة بين شعر الطائيين للآمدي ، تحقيق أحمد صقر (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦١) .
الموشح للمرزباني (المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٤٣ هـ) .
نقد الشعر لابن قدامة (المطبعة المليجية ـ مصر ١٩٣٤) .
وحي القلم للرافعي (مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٩٤١) .
وفيات الاعيان لابن خلكان (بولاق ١٢٩٩ هـ) .
هبة الايام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي ، تحقيق محمود مصطفى (مطبعة العلوم ـ القاهرة ١٩٣٤) .
همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، تحقيق محمد بدر الدين النعساني (مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٢٧ هـ) .

فهرس الموضوعات

ص

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

صدر عن مديرية الثقافة في وزارة الثقافة والارشاد المطبوعات التالية :

	الثمن	
	فلس	دينار
أولا ـ سلسلة كتب التراث		
١ ـ الدر النقي في علم الموسيقى : للقادري الرفاعي الموصلي وتحقيق الشيخ جلال الحنفي	٠٥٠	ـ
٢ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد محمد عبدالجبار المعيبد	٣٠٠	ـ
ثانيا ـ سلسلة الكتب المترجمة		
١ ـ الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ· كاظم نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
ملحق ـ ١ ـ المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية : للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
٢ ـ رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين · قدم له وعلق عليه سالم الآلوسي	٢٠٠	ـ
ثالثا ـ سلسلة الكتب الحديثة		
١ ـ رائد الموسيقى العربية : تأليف عبدالحميد العلوچي	٢٠٠	ـ
٢ ـ معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتورحسين علي محفوظ	٢٠٠	ـ
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية : تأليف الاستاذ ميخائيل خليل الله ويردي	٠٥٠	ـ
٤ ـ الحرية : تأليف ابراهيم الخال	١٠٠	ـ

	الثمن	
	فلس	دينار
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي	٠٥٠	ـ
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي	٠٥٠	ـ
٧ ـ النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي ـ تأليف حامد مصطفى	٣٥٠	ـ
٨ ـ علي محمود طه ... الشاعر الانسان : تأليف انور المعداوي	٢٠٠	ـ
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوچي	٢٥٠	ـ

رابعا ـ سلسلة الثقافة العامة

١ ـ المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبدالحميد العلوچي	١٠٠	ـ
٢ ـ الادباء العراقيون المعاصرون وانتاجهم : تأليف سعدون الريس	٠٥٠	ـ
٣ ـ تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري (نفدت نسخه)	٠٥٠	ـ
٤ ـ العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ	٠٥٠	ـ



ثمن النسخة ١٥٠ فلسا

دار الجمهورية للطباعة والنشر
بغداد ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م